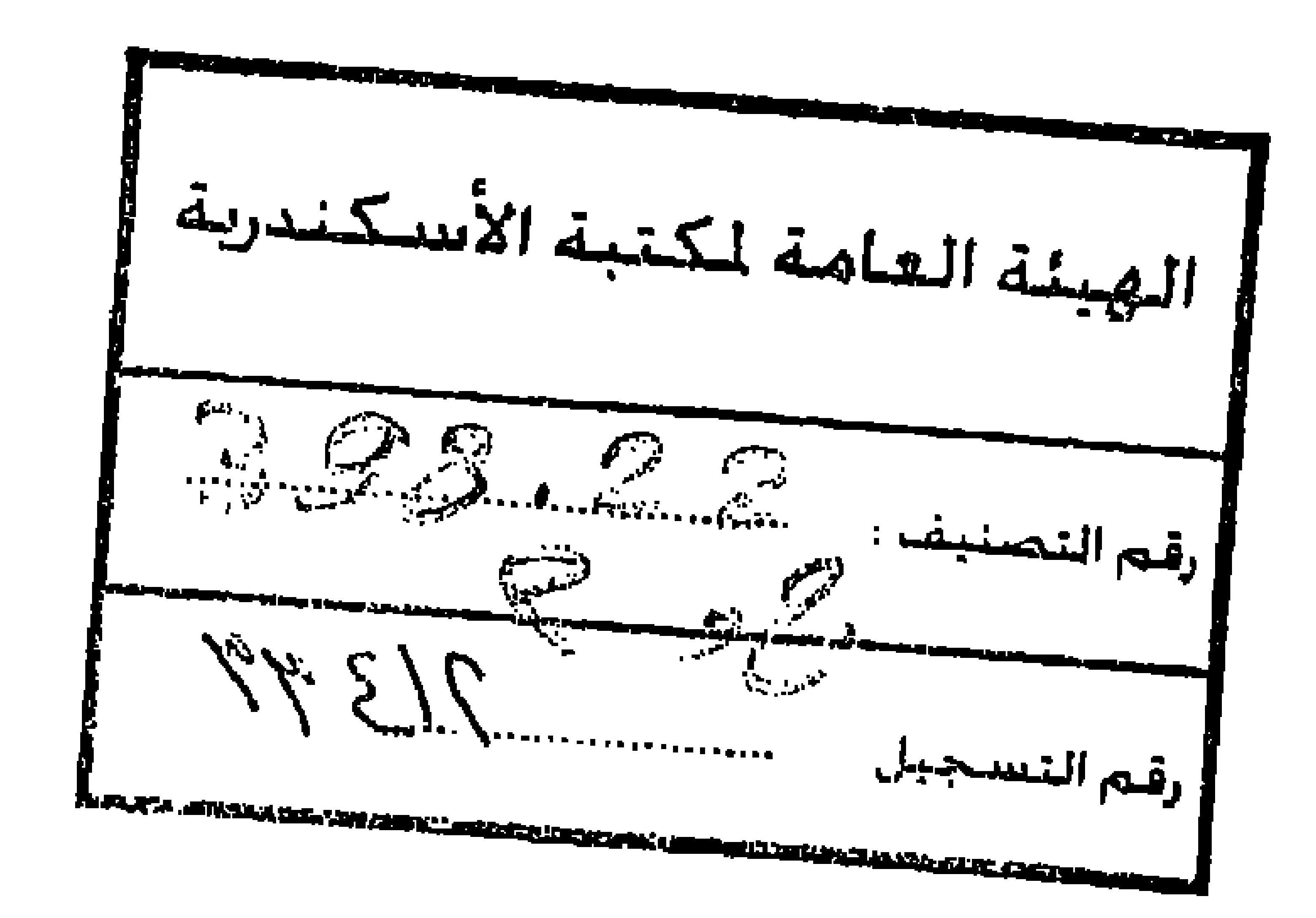
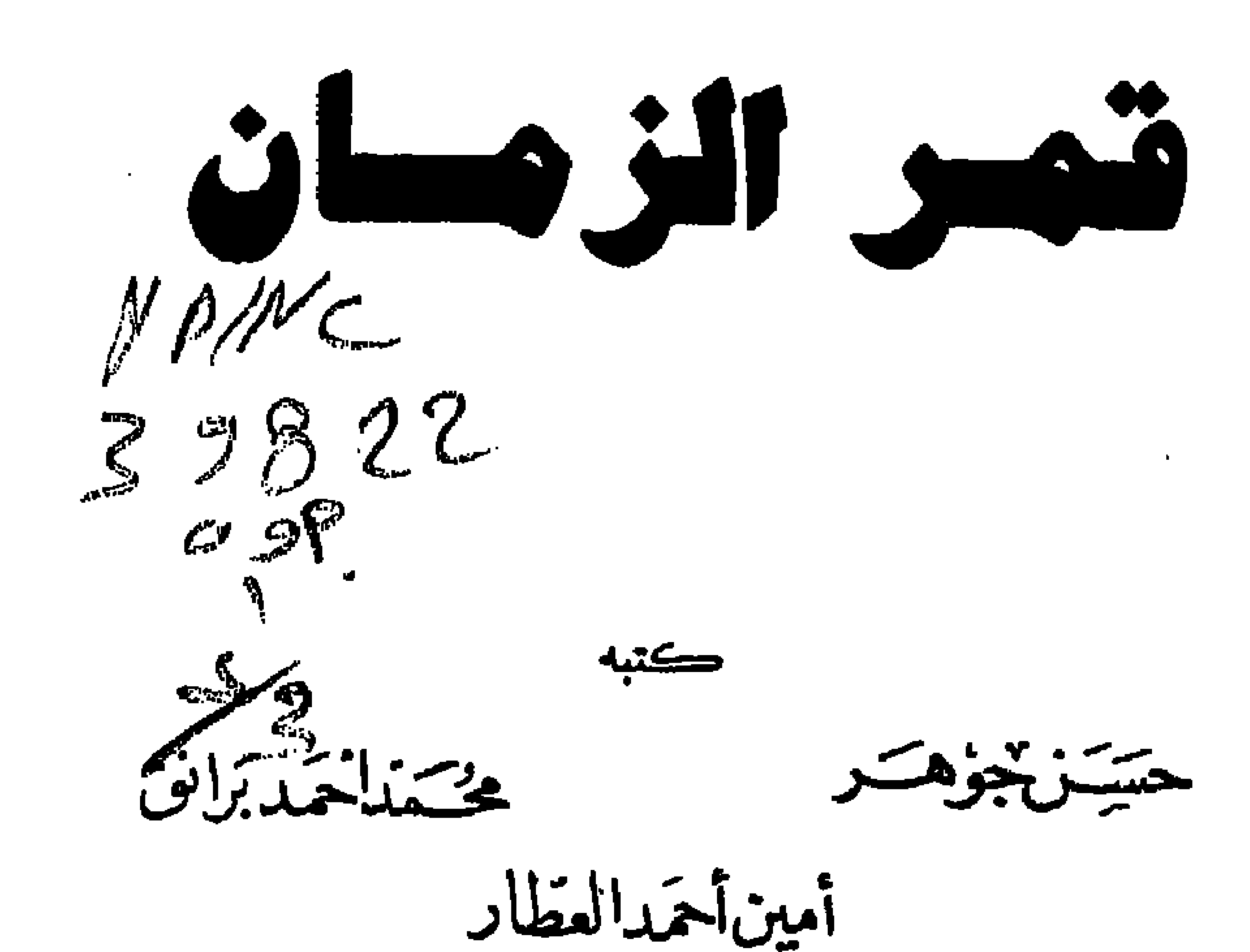

ألف ليلة وليلة
حسن جوهر
محمد أحمد برانق
أمين أحمد العطار
٣



ألف ليلة وليلة

الجزء الثالث



قمر الزمان

كتبه

حسن جوهر — محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطار

الطبعة الثانية



دار المعارف

الجزء الثالث

رسوم: الفنانة النمساوية ستيلا يونكرز

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.



جودر

(١)

كان لرجُل تاجر اسْمه عمرُ ثلاثةُ أبناء ، قد بلغوا مَبلَغ الرِّجال : اسمُ أكبرهم سالم ، واسم أوسطهم سليم ، واسم الأصغر جودر . وكان أبوهم يُشْرِكهم معه فى تجارته ، ويدرّبهم على طُرُقها وأساليبها ، ويُعرّفهم ما يجب عليهم معرفتُه فى معاملة الحُرفاء ، حتى يَثِقوا بهم ، ويُقبلوا عليهم ، ويَطمئنوا إليهم .

إلا أنّ هؤلاء الأولاد كانوا على اختلافٍ فى الأخلاق والطِّباع : فكان سالم وسليم فيهما شراسةٌ ، ولؤْم طَبع ، وسوء خُلُق ، واسْتِهانة بشئون الحياةِ ؛ لا يؤثّر فيهما نصائح أبيهما ، ولا حُسن توجيهه ، ولا جَميلُ إرشاده .

أما جودر فإنه كان طيبا ، مهذبا ، نقي السريرة ، لطيف العشرة ، كريم الطبع ، مطيعاً لأبيه ، يتقبل منه توجيهاته : وكان أبوه يودعه أسرارَه ، ويُطلعه على دخيلة نفسِه ، ويؤثره على أخويه .

وأدّى هذا الإيثارُ إلى حِقد الأخوين الكبيرين على أخيهما الأصغر ، ومُجافاته ، ومحاوَلة النَّيل منه حاضِرًا وغائباً .

ولم يَخْفَ ذلك على أبيهما ، فبدأ يَخشى على جودر منهما ، وتوقّع أنهما سينالانِ من أخيهما ، ولاسيَّما إذا أدركه الأجل ومات ، فإنه سيخْلو لهما الجوّ ، ويُحاولانِ إيذاءه ، والنَّيْل منه ، ويساعدُهما على ذلك ما هُما عليهِ من شراسةٍ وفظاظة ، وخُلُق غليظ .

فجمع الأبُ نَفرًا من الناس وأشهدَهُم على تقسيم أمواله وتجارَته إلى أربعة أقسام ، جعل أحدَها لنفسه ، ثُمَّ لزوجتِه من بعدِه ، وجعل لِكُلّ ولدٍ من أولاده الثلاثة قِسماً ، ولم يُميِّزْ جودر على أخويه ، بل جعلهم كُلَّهم سَواء ، حتى لا يزيد حِقدهما على أخيهما ، ولا تزيد نار البَغضاء التي بينه وبينهما اشتعالا .

وحان حَيْنُ الأبِ بعد زمن قصير ، وصُفيت تركته ، وأخذ كلُّ واحد من وَرثَته نصيبَه كما قسم بَينَهم أبوهم .

إلا أنّ سالماً وسليماً لم يُحسِنا القيامَ على مال أبيهما ، ولم يَرضَيا بهذه القسمة التي قسم بها أبوهما المال بين الإخوة الثلاثة ، وفزعا إلى القاضي يشكُوان له ظُلم هذه القسمة ، واضطُرّ جودر أن يَختصِم إلى القاضي

كما اختصم أخَواه ، وظل الإخوة على ذلك الخِصام وقتاً طويلا ، وأحضر جودر الشُّهود الذين شهِدوا محضر القسمة ، وأبْرءوا ذمَّتَهم بأداء الشهادة على يَدَى القاضى ، فقضى بما شهِدُوا .

إلا أن هذا الخِصام الذى طال شَغَلَهُم جميعاً عن استثمار المال ، وظلوا يُنفقون منه على أنفسهم ، وعلى قَضِيَّتهم من غير أن يَزيدوه شيئاً ؛ فَفَنِي أكثر المال .

خافوا عَلَى المال أن يَنْفَد جميعُه ، فاشتغل كلّ منهم بنفسه ، وقام على تدبير ما بَقِي من أمْواله ، وصَرّف تجارته حسب رَغْبته وهواه ، فساءت حال الأخَوَيْن الكبيرين لسُوء تَصرُّفهما ، وتحسنت حالة جودر تبعاً لِدرايته وخِبْرته ، وكثرة مُمارَسته العمل زَمنَ أبيه ، ولِما امتاز به من العقل الراجح والخُلُق الكريم ، وحُسن التصرف ، فزاد حِقد أخَوَيه ، ونَفِسا عليه نِعمته ، ونَقَما منه أنّ الله وفَّقه فأحسنَ تَوفيقه ، وأعطاه فأجزَل له العطاء ، وهنأه بما أسبَغ عليه من ربح وفير ، ومال كثير ؛ ولذلك عادا إلى مُخاصمته أمام القضاء .

وما زالَ هذا دَأْبهما : ينتقلان بالشَّكْوى من قاضٍ إلى قاض ، ويَبسُطان دعواهما الباطلة بين يَدَيْ حاكم وحاكم ، حتى وَلّت البَقيّة الباقية من أموالهما ، وتَدَهْوَرَت حالة أخيهما بِسبب هذا الشاغل المتجدّد الذى كان يَشغَلُهم جميعاً عن تنْمية الثّروة واستِزادة المال

ولم يَكفِ سالمًا وسليماً ما حَلّ بأمْوالهما ، فسَلَبا أمّهُما مالها بعد أن

اعتَدَيا عليها بالكلام البَذِيء ، وأهاناها إهانات شَديدة ؛ ولكنّ هذا المال لم يلبث أن أكَله طبْعهما اللّئيم ، وما نَشأ عليه من المُخاصمات والبطالة ودناءة الخُلُق ، وسوء التّدبير .

ذهبَتْ أُمُّهما إلى جودر باكِيَة مُنتحِبَةً ، تَشْكو عُقوق أَخَوَيْه لها ، وما فَعلاه بها ، من اغتصاب مالها .

فطيَّب جودر خاطِرَها ، وقال لها :

— يا أمى لقد صِرْتُ فقيرًا ، وصار أخَوَاى فقيرَيْن مثلى ، ولا فائدَةَ تعودُ علينا لو رَفعْتُ أمرها إلى القاضى ، وقد ذهبت أموالُنا جميعاً فى هذا السبيل من التشاحُن والتخاصُم ، ففوِّضى أمْرك إلى الله ، وابقَىْ معى فى منزلى هذا ، والله يرزُقُنى وإيّاك وهو خيرُ الرازقين .

وأقام جودر مع أمه ، واصْطَنع صَيد السمد ، وأخذ يَسْعى كلّ يوم إلى البَحر بشبَكتِه ، يتلقّى بها ما يجود به عليه من خَيْره العميم ، بعد أن فَقدَ رأْس مالِه الذى خلَّفه له أبوه .

وواتاه رزْقُه ، فيسره الله له فى كَنف أمه ببركة دُعائِها كلَّ صباح وهو خارج يَحْمِل شبكتَه ، وكَفَل لهما سُهولة العيش ، وكفاهُما شرّ العوَز والفاقة .

أما أَخوَاه فقد زادَتْ حالُهما سُوءا على سوء ، وأَصْبحا فى شرّ حال ، يَتسكَّعان هُنا وهُناك ، ويَتلقَّيان ما يجود به الخَيِّرون من فضل طعامهم ؛ أو قَليل المال الذى لا يَردُّ جوعاً ، ولا يُمْسِك رَمَقاً ،

ولا يَكسو عُرياً . فماشا يُرهِقُهما العسر ، ويوجِعُهما الشظف ، ويُؤلمهما الإقلال .

وعَلِما جِدّ جودر ، وسعْيه ، وما مَنّ به الله عليه من رزق جارٍ ، وعَيش يسير ، فقصدا إلى أُمّهما يَستميلانِها ويَتودّدان إليها ، ويرجُوان عطفها ، ويستدِرّان حنانها ، يَتباكيان مرّة ويَتمسّحان بها أُخْرَى ، ويشكُوان ما بهما من بُؤس ، وما يُعانيانِه من مرارة وذلة ؛ وما زالا كذلك حتى حنّ قلبها لهما ، ورقّت عاطفتها ؛ فآوتْهُما ، وأظَلّتهما بِشيء من عَطفها ، وصارتْ تُطعِمهما من جُوع ، وتَكْسوهما من عُرْى ، وكانَ ذلك على غيْر عِلم من ابنها جودر .

وبَينما هما ذات يوم يَلتَهِمان ما قدّمته لهما أُمهما من طعام ، إذْ بجودر قد دخل فخجِلت أُمه ، وأطرقت برأسِها إلى الأرض استِحياء من إطعام وَلدَيها العاطِلَين العاقّيْن من كدّ ولدِها العامل الكادح المسكين .

ولكن جودر ما كادتْ تقعُ عينُه على أخويه حتى هَشّ في وجههما ، ورَحّب بهما ، وعانَقهما وهو يقول :

— مرحباً بكُما ، لقد غِبْتُما عنّا ، وما كان لكما أن تَنقطعا كل هذا الوقت عن أُمّكُما ، فنحن ما زِلنا نَذْكركما . ونتمنى أن نراكما .

فبادَلَه أخَواه عَطفاً بعَطف ، وحناناً بحَنان ، وقدّرا شُعوره الطيِّب ، واستقباله الجميل .

ثم أخذا يعتذران عمّا كان منهما من مُضايقة لأخيهما ، وعُقوق لأمهما .

فسكن روع أمهم ، وتبدّد خجلها ، وفرحتْ فرحاً شديداً لِرضَا جودر عن أخويه ، وابتَهلتْ إلى الله بالدُّعاء الصالح له . فلما رأى جودر سُرورَ أمه ، قال لأخَويْه :

أقيما معنا . فإن خَيرَ اللهِ كثير .

وهكذا أقام سالم وسليم مع جودر وأمه آكلَيْن شاربيْن ، يخرجان وَقْتَمَا يُريدان ، ويَعودان حينما يَشاءان ، دُون أن يَعبآ بالبَحْث عن عمَل ، أو يَسْعَيا وراءِ رِزْق .

أما جودر فقد دأَب على الخروج مبكِّراً بشبكته إلى البَحْر ، ويَظَلُّ يُجاهد حتى يُصيبَ رِزْقه من السمك ، ثم يَبيعه فى الأَسواق ، ويَبتاع بثمنه طعاماً لأُمه وأخَويْه ، ويعود فى المساء إلى منزلِه .

وبقِيَ على هذه الحال زَمناً طويلا .

ولكنَّه خرج يوماً إلى البحر على عادتِه ، وظلَّ يُلْقِى فيه شِباكَه ، ثم يَجذبُها فلا يَجدُ بها سَمكا ، وانْصَرمَ النهار وهو على شاطىء البَحر لا يُصيبُ شيئاً . ولما مالت الشمسُ إلى الغُروب جمع شِباكَه وقَفَل عائداً خاوِىَ الوِفاض .

وكان فى طريقِ عَوْدتِه الخَبْز الذى اعْتاد أن يأخذ منه حاجته من الخُبز . فما كاد الخَبَّاز يَلْمَحه مُقبلاً حتى أعدّ له الخُبْز وانتظر وُصُوله ليأخذه ، ولكنّ جودراً نظر إليه ، ولم يُعرِّج عليه ، وواصَل سَيره فى طريقه ، فناداه الخبازُ وسأله : ما بالُكَ ؟ وما الذى جعلك تُغيِّر عادتَك ؟ فلم تُعرِّجْ

بنا لتأخذ خُبزك . فصمَت جودر ولم يُحِرْ جَوابًا ، وترجَّحت فى عينِه دَمْعة فَفطِن الخباز لحاله ، فقال له :

— خُذ حاجتك يا جودر ؛ وغداً أو بعدَ غدٍ يُيسِّر الله لك ، فآخُذ نقودى .

ثم ناوله الُخبز ، ومَبلغاً من المـال يَشترى به إداماً ؛ فَفرِح جودر ، وأخَذ الُخبز والمال .

وذَهب فابتاعَ ما تَحتاجُ إليه أُمه وأخَواه ، وعادَ إلى منزِله ، وأعطى أُمه الطَّعام على عادته ، فأعدَّته ، وتناول عشاءه مع أخويه ونام

وفى اليوم الثانى بكَّر إلى البحر ، آملاً أن يُعوِّضَ الله عليه ما فاته فى اليوم السابق ، ولـكنّ سُوء الحظ حالَفه ، فلمْ يَرْزُقه الله شيئاً ، فظلّ ينتقِل هنا وهناك ، ويُلقِى شِباكه فى أماكن مُخْتلفة دُون جَدْوَى .

فلما أَمسى المساء قفَل راجعاً ، وعَرفَ الخبازُ أن البَحر بَخِلَ عليه فى هذا اليومِ كما بَخِلَ عليه أمسِ ؛ فأعطاه مثل ما أعطاه فى اليوم السابق ، وهو يقول له : لا تَبتئِسْ يا جودر ، ولا تَحزن ، فإنَّ فَرَجَ اللهِ قَريب ، وسآخُذ بحقِّى سَمكا .

وما زالَ هذا حالَ جودر سَبعة أيام ، يَنتقل من شاطىء إلى شاطىء ، ومن مكانٍ إلى مكان ، والبَحر ضَنينٌ عليه فلا يَصطاد شيئاً ، فكأنَّه أقفر ، ونَفِدَ منه السّمك ، وما زالَ الخبازُ يُعطيه الخبزَ والنُّقود كلما رآه مُقبلا ، وجَعبتُه فارغة .

واستولى اليأس على جودر ، وثقُل عليه الدَّين ، وبَدأت الدُّنيا تَضيق أمام عيْنيه ، وحزَّ فى نفسِه استدانتُه من الخبَّاز دون أن يبدوَ أمامَه أَمَلٌ فى سَداد دَينِه .

فصمَّم على الذَّهاب إلى بُحيْرة بَعيدة ليُجرِّب حظَّه فيها .

فلما أَصبح الصباح توجَّه إليها يَحْدُوه الأَمل ، ويدفَعه الرَّجاء ، وبعد أن وصل إلى شاطئِها ، وهَمّ بنثر شِباكه فيها — أبْصر رجُلا مَغرِبياً ، يرتَدِى حُلة ثمينة ، ويركَبُ بَغلة عليها خُرج مُزركش — قدْ أقبَل عليه ، فلما دَنا منه نزل عن ظَهْرِ بَغلته ، وأَقبل نحو جودر ، وقال له :

السلام عليك ياجودر بنَ عُمر .

فردَّ عليه جودر السلام ، ونَظَر إليه مستعجباً من أنه يعرِفُ اسمَه ، واسْمَ أبيه .

ولكن المغرِبى بادَره قائلا :

يا جودر بن عُمَرَ ؛ لِى عندَك حاجة ، ولا يَقضيها أحدٌ غيرُك ، فإنْ وافقْتنى على قضائِها نالَك منِّى خَير كثير .

فقال جودر : يا سَيِّدِى ؛ إنِّى على استعدادٍ لقضاء حاجتِك ، ما دام ذلك فى مقدورِى .

المغرِبى : أقْسِم لى أنك تفْعلُ ما أطلبُه منك .

جودر : أُقسِمُ أنْ أُطيعَك طاعةً عَمْياء ما دُمتُ مُستَطيعاً تنْفيذ ما تُريد

عند ذلك أَخْرج المغرِبى حَبْلا رَفيعاً من الحرير ، أعْطاه لجودر وقال له :

كتِّفْنى بهذا الحبل ، وشُدَّ وَثاقِى جيِّداً ، ثم أَلْقِنى فى هـذه البُحَيرة ، وانتظِرْ قليلا؛ فإنْ رأيتَنى أخرجتُ يدى من الماء ، فاطْرَح الشبكة واجذبْنى جَذْباً سريعاً ، وإن رأيت رِجلِى قد خَرجَتْ من الماء فاعْلم أنِّى ميِّت ، فاتركنى وخذ البَغْلة والُخرج ، وامْضِ إلى سُوق التجار ، واسأل عن يَهودِى اسمه شميعة . وأعطِه البغْلة والُخرجَ ، وهو سيُعطيك مائةَ دِينار ، فخذها لك ، واكتُمْ هذا السِّر يا جودر ، وإياكَ أن تبَوُح به .

لم يجدْ جودر بُدًّا من تنفيذ قَسَمه . فأوْثَق كِتافَ المَغربِى ، وألقى به فى البُحيرة ، ووقَفَ ينتظر خُروج يَدِه أوْ رِجْلِه ، وهُو فى أشَدِّ العَجب ، ولم يَمْضِ إلّا قَليل ، حتى خَرجَتْ رِجْلُ المَغربى من الماء ، فأيقنَ جودر أنه مات ، فأخَذَ البَغْلة ، وتوجَّه إلى سُوق التُّجّار ، وسأل عن اليَهُودى فدلَّه الناسُ عليه ، فوجدهُ جالساً بباب مَخْزن كبِير . فلمّا رأى البغْلة مع جودر عرفَها وقال :

— هلك الرجل ، وما أهْلكه إلاّ الطّمع والجشَع .

ثم نهض فأخذ البغلة من جودر وأعطاه مِائة دينار .

فقصد جودر من فوْره إلى الخبّاز فأخَذ منه الُخبز على عادتِه ، وأعطاه ثمنه ، وسدَّد بعض ما عليه من دَيْن ، واسْتَمهله فى الباقى لليوم الثانى . ثم أخذ حاجَتَه من لحم وخُضر وفاكهة ، وأسرع عائدا إلى أُمِّه ، فوجدها تطلب من ولديها الكفَّ عن مطالبتها بالطّعام حتى يعُود أخوهما . فأعطاهم ما جاء به . فوقع أخواه على الخبزِ والفاكهة يَلْتهمونَهما التهاماً

من شدّةِ ما بهما من الجوع ، ولم ينتظرا حتى تطيخ أُمُّهما اللحم والخضر .

وأعطى جودر أمَّه ما بَقِي معه من النقود ، وطلب إليها أن تعطى أخويه ما يحتاجانه من طعام فى أثناء غيابه ، حتى لا تُعَرِّض نفسها لإهانتهما إذا جاعا .

وفى اليوم الثانى قصد جودر إلى البُحَيرة . وما كان أشد عجبَه حينما أبصر مغربيًّا آخر يرتدى مَلابس أُخر من ملابس سابقهِ ، ويعتلِى ظهر بغلة عليها خُرج مُزَركش .

— نظر إليه فرآه مُقبلا عليه ، ولما دَنا منه أقرأه السلام ، فردّ عليه جودر تحيّته بأحسن منها .

ثم قال المغربى : هلْ جاءك بالأمس مغربىٌ راكب بغلة مثل هذه البَغلة ؟

فلمْ يسعْ جودر إلاّ إنكار رؤيته للمغْربى خوْفًا من أن يسأله عن مصيره ، ويتّهمه بإغراقه .

فقال : ما رأيْتُ أحداً يا سيدى .

فقال المغربى : إنه أخى ، وقد سَبقنِى إلى هذا المكان أمْس .

فقال جودر : لا أعرف خبره .

فقال المغربى : أما أوْثقته أنتَ بحبل من حرير ، وقذفت به إلى البحر ، وقال لك : إن خرجتْ يداىَ فارْمِ الشبكة وانتشلْنى ، وإن تخرجْ رجلاىَ أكنْ ميتاً ، فاترُكنى ، وخذ البغلة واذهب إلى اليهودىّ

شميعة ، فإنه حينَ يراكَ ، يعرفُ خبرى ، فيأخذ البغلة والُخرج ، ويُعْطيك مائةَ دينار ، وَقدْ فعلتَ معه ما طلب منك ، وخرجتْ رجْلاه ، فتوجَّهتَ أنتَ إلى اليهودى ، وأعطيته البغلة والخرْج ، وأخذتَ المائة الدينار ؟!

فقال جودر : وإذا كنتَ تعرف ذلك ، وتَعلمه علم اليقين ، فلماذا تسألُنى ؟!

قال : أريد أن تفعل بى كما فعلتَ بأخى أمْس .

وأخْرَج له حبل الحرير . وطلب منه أن يُوثقه به ، ويُلْقيه فى الماء ، وإن حصل له ما حصَل لأخيه يترُكه ، ويذهبُ إلى اليهودى ، فيأخذُ منه مائةَ دينار .

أخذ جودر حَبْل الحرير وأوْثقه به ، وقذفه فى الماء ، وهو لا يَفْهم لهذا الحَبْل معْنى . وبعد قليل ظهرتْ رجْل المغربى . فأخَذ جودر البغلة ، وسار إلى اليهودى وهو يقول لنفسه : لعلَّ اللهَ يسُوق إلىَّ كلَّ يوم مغربيًّا مخبولاً ألقيه فى الماء ، وآخُذ المائةَ الدِّينار ؛ ولكنَّ هذا الأمْر لا بُدَّ أنْ يكون وَراءه سرٌ لا أفهمه الآن .

فلما رآه اليهودى قال : ماتَ الآخَر ؟

أجاب جودر : نعم .

فقال اليهودى : هذا جزاء الطمع .

ثم أخذ البغلة ، وأعطاه المائة الدِّينار .

فأخذها جودر ، وتوجَّه إلى أُمه ، وأعطاها إيَّاها . فقالتْ له :

يا وَلدى من أين لك هذا ؟

فأخْبرها . فقالت :

باللهِ عليكَ يا بنيّ ، لا تذهب بعد الآن إلى هذه البُحيرة ، فإنِّي أخاف عليك من هؤُلاء المغاربة .

فقال : يا أمى ؛ أنا لا أرْميهم إلا استجابة لرغبتهم ، وتحت تأثير إلحاحهم الشديد ، وهو عمل يسير ، وأكْسَب منه مائة دينار ، وأنا مُتأكِّد أنّ وراءه سرًّا ، سينكشف لى بعد زمن قريب أو بعيد ، ولنْ ينالَنى منه أذًى ، لأنِّى لم أفكِّر فى إيذاء أحد ، والله يدْفع عنى إذا أُريد بى شرّ ؛ يا أمّاه ؛ أنا لنْ أنقطع عن الذَّهابِ إلى هذا المكان ، حتى أرى ما سيكون .

وفى اليوم الثَّالث ذهبَ جودر إلى البُحيرة ، وإذا بِمغربى ثالث قد أقبل ، وقال لجودر :

السَّلام عليك يا جودر بن عُمَرَ .

فردّ عليه جودر السلام ، وهُو يقُول لنفسه : من أين يعرف هؤلاء المغاربة اسمى واسمَ أبى ؟!

فقال المغربى : هل جاز هذا المكان مغارِبة قبلِى ؟

فقال جودر : نعم ، جازه اثْنان قبلك .

قال المغربى : إلى أين ذهبا ؟

جودر : أوثقتُهما بحبل من حرير ، وألقيتهما فى هذه البحيرة فغرقا والعاقِبَةُ لك إن شاء الله .

فضحك المغربى ، وقال : كلُّ حىٍّ وما كُتبَ له ، ولنْ يُصيبنا إلاّ ما كَتب الله لنا .

ثم أرْدَفَ قائلاً : ياجودر ؛ افعل معى كما فعلت مع أخَوَىّ من قبل .

وأخرجَ له حبل الحرير ، فأدار جودر الحبْل حوله ، وأوثقَ كِتافه وألقى به فى الماء .

وبعد قليل أخرج المغربى يَدَيه ، وقال : إرْمِ إلىّ الشبكة يا جودر ابن عمر .

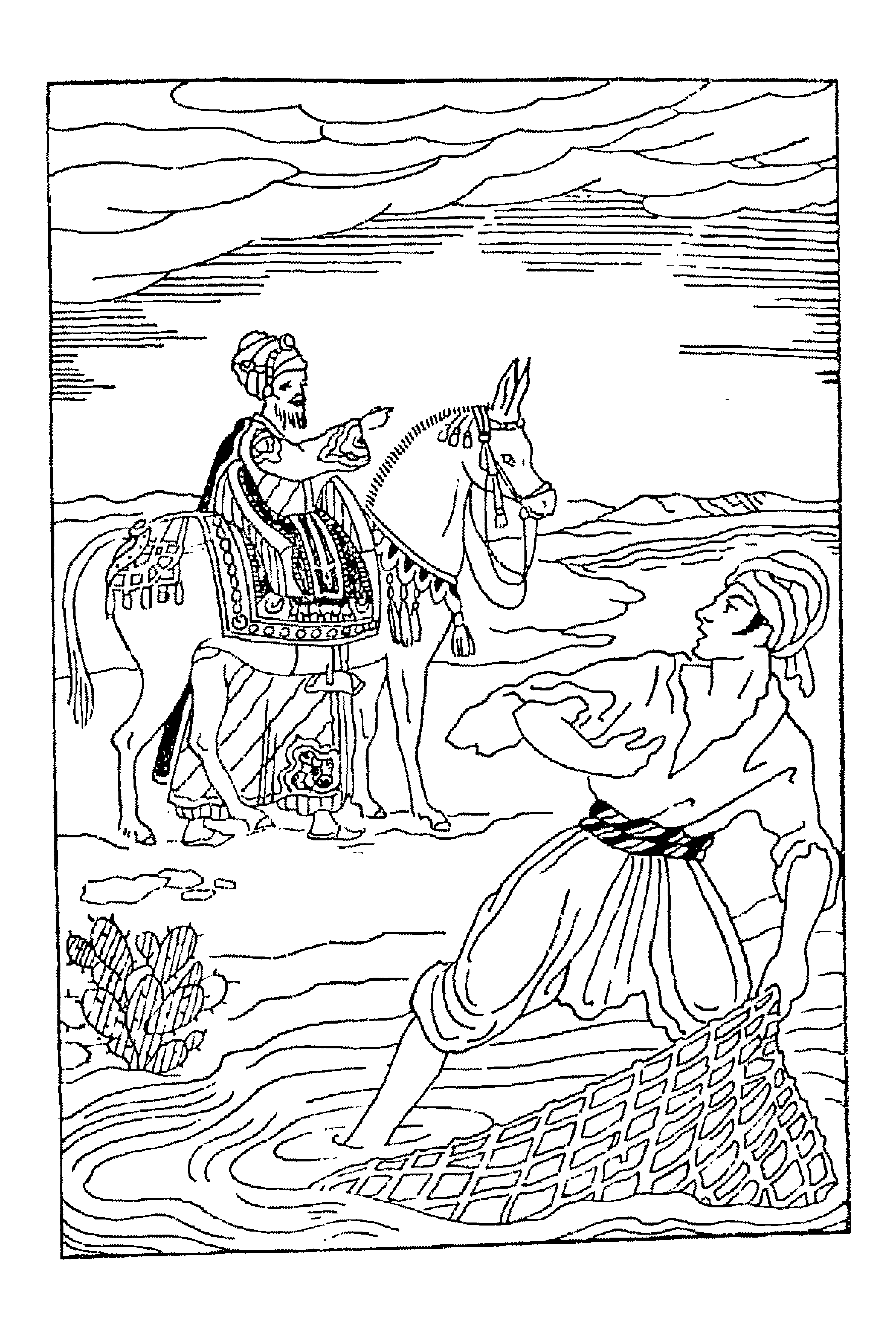
فأسرع جودر إلى الشبكة وألقاها فى الماء ، فتعلّقَ بها المغربى ، فإذا هو قابض فى يديه على سمكتين لونُهما أحمر مثل المَرْجان ، وأشار لجودر نحو الُخرج ، وقال له :

— أخْرِجِ العُلْبَتين اللتين فى الخرج ، وافتحهما .

فأخرج جودرالعلبتين وفتحهما ، فوضع المَغربى كلّ سمكة فى علبة ، وأغلقها عليها ، وقد مَلَكتْه نَوْبة من الفَرح الشديد . ثم أقبل على جودر فعانقه وقبّله ، وهو يقول :

— لولا أنك ألقيتَ الشبكة سريعاً، وأخرَجْتَنى — لَمُتُّ غَرقا .

فقال جودر : الحمد لله على نَجاتِك يا سيّدى ، وإن كان فيها خسارة لى ؛ ولكنى أوَدّ أن تُخبرنى : ما شأنك ؟ !



وما شأن اللذين غَرِقا قبلك ؟!

وما هاتان السَّمكتان ؟!

ومن هو ذلك اليهودى شَمْعون الذى كان يأخُذ منى البَغْلَة والخرج ، حينما يرانى ، ويعطينى مائة دينار ؟!

قال المغربى : اعلم يا جودر أن اللذين غَرقا قبلى هما أخوَاى ، أحدهما اسمه عبد السلام ، والثانى اسمه عبد الأَحد ، وأنا اسمى عبد الصمد ، أما اليهودى ، فهو أيضاً أخونا ، واسمه عبد الرحيم ، وما هو بيهودىّ ، بل هو مسلم . وكان والدُنا قد علّمنا السِّحر ، وحلَّ الرُّموز ، وفتْحَ الكنوز ؛ وكثُرتْ فى ذلك تجاربُنا ، فخدمتنا مَرَدة الجنّ والعفاريت . وقد خَلَّف لنا والدنا أموالاً وذخائر ، وكتباً ، اقتسمناها فيما بيننا ، ولكننا اختلفنا على كتاب نادِر لا يقدَّر بثمن ، اسمه أساطِير الأوّلين ، وبه سائر أخبار الكنوز ، وطريقةُ حلّ رمُوزها ، وكان أبونا دَائباً على دراسته حتى وافاه الأَجَل ، فصار غَايةَ كلّ منا الحصول عليه .

وعَرَف أستاذُ أبينا الذى علَّمه السِّحر خَبرَ ذلك الخلاف ، وهو ساحِر عظيم ، اسمه الكاهنُ الأَعْظَم . فحضر مجلسنا ، وفصل بيننا بقوله :

أنتم أولاد ولدى ، ولا أُريد أن أغبن أحداً منكم ، فأنتم عندى سواء ، وهذا الكتاب يأخذه من يُثبت قدرته على حَمْله ، وجدَارته به ، وذلك بمحاولته فتح كنز الشمَرْدَل ، وإبطال أرْصاده ، ويأتينى منه بدائرة الفَلَك ، والمُكْحُلة ، والخاتم ، والسّيْف .

فإنّ من يملك دائرة الفَلَك. يستطيع بالنظر فيها أن يرى ما بين المشْرق والمغرب، وما يحدُث في البلاد كلّها: وإذا أراد إبادَة مدينة، وإهلاكَ أهلِها — وَجّه الدائرة إلى قُرْصِ الشمس، وسَلَّطها عليها، فَسرعان ما تحترق.

وأما المُكْحلة فإن كل من اكتحل منها استطاع أن يرى جميع كنوزِ الأرض.

والخاتم له خادم من الجنّ يخدم مالكَه، ويستطيعُ حائزُه أن يملك ما يشاء.

أمّا السيف فإن حامله لو جرّده على جيش لهزمه.

يا أولادى؛ كلُّ من عَجز عن فتح الكنز، وإحضار هـذه الأشياء الأربعة — فلا يَحِقّ له أن يأخُذ الكتاب، أما من يفتحه ويأتى بها — فهو له.

فَقبلْنا شرُوط الكاهن الأعظم، ولكنه استمرّ يقول:

اعلموا، يا أبنائى، أن هذا الكَنْز تحت حُكم أولاد ملك الجن، وكان والدُكم قد عالج فتحه، ولكنّ أولاد الملك عَصَوْه، وفَرُّوا منه، واعتصموا ببُحَيْرة فى أرض مصر، فجاء إلىّ، وأخبرنى ذلك الخبر، فضربت له تقويمًا، فرأيتُ أن هـذا الكنز لا يفتح إلا على وجه غلام صَيَّاد، من أبناء مصر، اسمُه جودر بن عُمر، ويكون له اليَدُ الطُّولى فى القبض على أولاد ملك الجن من البُحَيْرة التى احتموا بها، وذلك بشدّ وثاق من

سيُحالفُه الحظُّ فى القبض عليهم ، وإلقائه فى البُحَيرة ، ثم إخراجه بشبكته إذا خرجت يده من الماء؛ أمّا من تخرج رجله — فلا يكون هو صاحب الحظ ، ويموت . وستكون مقابلة هذا الغلام على ضِفاف البحيرة .

فقبِلْت أنا وأخواى اللذان ماتا هذا الرأى ، وصمَّمنا على المجازفة فى هذا السبيل ، ولو كان فيه هَلاكُنا . أما أخونا عبد الرحيم فقد رفض أن يُشاركنا ، فاتفقنا معه على أن يتنكَّر فى هيئة تاجر يهودى ، ويتوجه إلى مصر ، ويسمى نفسه شميعة ، حتى إذا مات أحدنا فى سبيل ما نصبنا أنفسنا له ، وسعينا إليه — كافأ الغلام جودر بمائة دينار ، ليُعاود الكرّة مع الذى يليه .

وهكذا رأيت أن أخوىّ فَشلا فى القبض على أولاد ملك الجن ، فقتلوهما . أما أنا فكان الحظُّ حليفى ، فنجحت وقبضت عليهما .

أصغَى جودر إلى كلام المغربى بانتباه ، فكان كله آذاناً تسمع ، وعيوناً تلْحَظ ، فتملّكتْه الدهشة ، واستولى عليه العجب .

فلما فرَغ المغربى من كلامه — ازدادت دهشة جودر وزاد عجبه . ثم قال للمغربى :

— ولكن أين هم أولاد ملك الجن الذين قبضت عليهم ؟ !

فقال المغربى : أمَا رأيتهما ؟ ! لقد سجنتُهما فى هاتين العُلْبتين .

جودر : إنّهما سمكتان حَمْراوَان كأنهما حجران من العقيق !!

المغربى : إنهما ليستا سمكتين ، وإنما هما عفريتان فى شكل سمكتين ،

وما بقى عليك الآن يا جودر إلاَّ أن تأتى معى إلى مدينة فاس ومكناس ، لأفتح عليك الكنز ، ولك عندى بعد ذلك ما تشاء .

جودر : يا سيِّدى ؛ أنا فى عُنق أُمِّى العجوز ، وأخواى المتعطِّلان ، أُنفق عليهم ، فإن ذهبتُ معك فمنْ يتكفلُ بهم ؟

المغربى : إنى سأُعطيك الآن ألف دينار تترُكُها لِأُسرتك تُنْفق منها حتى تعود ، ولنْ يطول غيابك عنهم .

أغرت ضخامة المبلغ جودر ، فوافق ، وقال للمغربى :

— أعطنى ألف الدينار . لأعطيها أمى . فأعطاهُ إيّاها .

أخذ جودر الدّنانير ، وذهب بها إلى أُمه ، وقدَّمها لها ، وقال :

خُذى يا أمى هذه الدَّنانير ، وأنْفق منها أنت وأخواى حتى أعود إليكمُ ، فإنِّى مُسافر مع مغربى إلى بلاد المغرب ، وسأعود لك بخير كثير .

فبكَتْ أمُّه ، وقالتْ : يا وَلدى ؛ إنِّى أخافُ عليك أذى المغاربة وسحرهم ، فقد يعتدون عليك ، أوْ ينالك منهم سوء .

قال : يا أمى ما على من يحفظه الله بأس ، والمغربى الذى عرفته طيِّبُ النَّفْس ، رحيم القلب .

وما زال يمدحه ويُطْرِيه حتى هدأتْ ، وسكن روْعُها ، واطْمأنَّتْ نفسها ، فجففَّتْ دمعها وقالتْ له : يا وَلدى ؛ اذْهبْ مَعه ما دُمتَ ترغَبُ ، والله يحرُسُك بعنايته ، ويكلؤكَ برعايته ، ويُعَطِّفُ قلب المغربى عليك ، وقبّلته ؛ فودّعها ، وعاد إلى المغربى ليسافر معه إلى فاس ومِكناس لفتح

كنز الشمَرْدل ، وإبطال أرْصاده ، وفك مَغاليقه .

(٢)

ركبَ المغربى بغلته ، وأرْدَف جودر خلفه ، وسافرا على بركة الله قاصدَين بلاد المغرب .

— وما زالت البغلة تمْرُق بهما كالبرق الخاطف ، حتى أوْشكت الشمس أن تغيب ؛ فشعر جودر بجوع شديد ، وصاحت عصافير بطنه ، لأنه لم يأكل طول يومِه ، ولم يجدْ مع المغربى شيئاً يؤْكل . فقال له : يا سيدى ؛ لعلك غفلت عن أن تجىء لنا بشىء نأْكله فى الطريق .

فقال المغربى : هل أنت جائع يا جودر ؟

فقال جودر : نعم ، مضى اليومُ إلا أقلّه ، ولم نذُق طعاماً .

فنزل المغربى عن ظهر البغلة ، وتبعه جودر ، فقال له المغربى :

— أىّ شىء تشتهى أن تأكل يا جودر ؟

قال جودر : أىُّ شىء آكله ؟ ! لقد عضّنى الجوع ، والجائعُ يشتهى كلّ شىء ، ويُحب كُلّ مأكول ، فأرجو أن تُعَجِّلَ بأىّ شىء أرُدُّ به جَوْعتى .

المغربى : بالله عليك ، قلْ لى : أىُّ شىءٍ تشتهيه ، فأنا مُستطيع الآن أن أقدّم لك ما تتمناه علىّ من أنواعِ المأكولاتِ ، وصُنُوف الطّعام .

جودر : يكفينى قطعة من جبُن ، وكسرة من خُبز ؛ فبالله عليك . عجِّل

المغربى : لا ، لابُدَّ أن تطلُب شيئاً طيِّباً ، اُطْلب ما تَشاء من قَدِيد وشِواءٍ ، وفاكهةٍ وحَلْواء .

جودر : كلّ شىءٍ لدىَّ طيِّب ، فعجِّل وهاتِ .

المغربى : أتُحب الدَّجاج المطبوخ بالزُّبد ؟ أتُحب اللحم المشْوّى على السَّفُّود ؟ أتُحب الحمام المخلى من العظم ؟ أتُحب التفاح أم الكمثرى أم كليْهما ؟

جودر : نعم ، نعم ؛ أنا أحب كلّ شىء ؛ وأحَبُّ الأطْعمة إلىَّ ما أراهُ الآن أمامى لأردّ به جوْعتى .

المغربى : أتُحب الأُرْز الملبون ، وهو فى السُّكَّر مدْفون ؟ أتحب الفطير المسْقِىّ عسلا ؟ .

جودر : نعم ، نعم . .

وما زال المغربى يعدِّد لجودر الألوان المختلفة الشهية ؛ من صُنوف اللحوم ، وألوان الفاكهة ، وأنواع الفطائر ، وجودر يستعجب ، حتى أيقن أنه إنما يهزأ به ، ويسخر منه . وأخيراً قال له :

— ومن أين تأتى بهذه الألوان ، ونحن بين الأرض والسماء ، وما جارنا دّيار ولا نافخ نار ؟ !

فوضع المغربى يده فى الخرج وأخرجها تحمل طبقا من الذهب ، به دجاجتان محمرتان ساختتان . ثم وضع يده ثانياً وأخرجها تحمل طبقاً من الكباب ؛ وما زال يضع يده فى الخرج ، ويخرجها بلون شهى من ألوان

الطَّعام التى كان يسمع عنها جودر من قبل ، ولم يذقها بلسانه ، ولم يقع عليها بصره فى حلم ولا يقظة ، حتى أخرج ما هَيَّأ وليمة فاخرة .

فعل المغربى ذلك ، وجودر ينظر إليه مبهوتاً مشدوهاً مما رأى .

ثم دعا المغربى جودر لتناول الطعام .

فقال جودر : ولكنْ، أخبرنى يا سيدى . كيف كان كلُّ هذا الطعام فى ذلك الخرج الصَّغير ؟ ! وكيف هو لا يزال حارًّا ساخناً ، وكأنه خارجٌ من يد الطاهى فى هذا الوقت ؟ !

ضَحِك المغربى ، وقال : اعْلم يا جودر أنَّ هذا الخرج مَسْحورٌ ، وله خادِم ، ولو طَلَبْنا منه فى أىِّ لَحظة أىَّ لوْن من ألْوان الطَّعام جاءنا به من فَوْرِه .

فأقبل جودر على الطَّعام مع المغربى وهو فى دَهْشة كادت تُنسيه أنه جائع ، فأكلا هنيئاً مريئاً . ولما فرَغا ، أفْرغ المغربى ما تبقَّى فى الأطْباق ، وأعاد الأطباق إلى الخُرج ؛ ثم أخْرج منه إبْريقاً مملوءاً بالماء البارد العَذْب ، فشَرِبا ، واغتَسلا ، ثم أعادَه .

وبعد أن أخَذا قِسْطاً من الراحة — رَكِبا البغلة ، ووَاصَلا السَّير .

وقال المغربى لجودر :

— هل تعلَم يا جودر كَمْ قطعْنا من الطَّريق ؟

جودر : كَمْ ؟

المغربى : قطعْنا مَسيرة شهرٍ كامِل ، ولا يأخُذْك لذلك العَجَبُ ، فإنّ

رَكوبتَنا ما هى إلا مارِد من الجن . تَسْتطيع أن تقطَع فى اليوم مسيرة سَنة ، ولكنها قد تمهَّلَت فى سَيرها من أجْلك يا جودر .

وما زالَت البغلة تنهَبُ بهما الأرْض ، وتَطْوى بهما القِفار . وكلما جاعا ، أو أرادا الرّاحة — نَزلا عن ظَهْرِها ، وأَخْرج المغربى من الْخُرج ما يَشْتَهيانه من طَعام أو شَراب . ثم يُواصِلان السير ، حتى وَصَلا إلى مدينة فاس ومِكناس ، ودَخلاها . فكان كلُّ مَن رأى المغربى من أهلِها يُسلِّمُ عليه ، ويُقبِّل يدَه ، حتى وصلا إلى قَصْر المغربى ، فترجَّلا . وأنْزل المغربى الْخُرج عن ظَهْر البغلة وقال لها : (انْصرفى باركَ الله فيك) وإذا الأرضُ قد انشقَّتْ وابتلعتْها .

فوَجَف قلبُ جودر . وقال :

— الحمد لله الذى نجَّانا فوق ظهْرِها .

ودخل المغربى ومعه جودر إلى قَصْره ، فقابلَته ابنتُه فَرِحة مُتهلِّلة . فعانَقها أبوها ، وقال لها :

— كيفَ حالُك يا رَحْمة ؟

قالت : بخَيْر يا أَبَت . وما نَقَصنى فى غَيْبتك إلا استِمْتاعى برُؤْيتك .

فقبَّلها ، وطلبَ منها أن تأتيَه بصُندوق مُعيَّن ، فلما أحضرتْه أَخْرج منه حُلَّة جَميلة فاخِرة ، أعطاها لجودر ، وطلَبَ منه أن يرتديَها .

فلبسَها جودر ، فبدا كأنه أحدُ أبناء المُلوك .

وأقام جودر مع المغربى فى قَصْره ، وكان قَصْرًا جميلا فَخْمًا ، فُرِشَت

أَرضُه بسجّاد ثمين ، وتَدَلَّت على نوافذِه ستائِرُ من حَرير ، مُزركَشَة بأسلاك الذهب والفِضَّـــة ، وعُلِّقت فى سقْفه مصابيح إذا أُضِيئَت جعلَت القصر فى نَهار مُشمِس ، وفيه تُحفٌ وتماثيل من أنواع الجواهر واليواقيت .

بَقِى جودر فى ذلك القصر مقيماً نحو عشرين يوماً ، يَرْفُل فى أبْهى الحُلَل ، ويَكْتسِى أفخر الثِّياب ، ويأْكُل هو والمغربى من الخرج أشْهى الأطعمة .

ثم قال له المغربى يوماً : هيَّا بنا يا جودر ، فإنَّ هـذا اليوم هو اليوم الموعود لفتح كَنْز الشَّمرْدل .

سار جودر والمغربى حتى خَرجا إلى ظاهر المدينة ، وامْتَطَى كلٌّ منهما ظهر بَغْلة ، وسارا يَصْحبُهما عَبْدان إلى أن انتَصف النَّهار . فأشْرفا على نَهْرٍ جار . فترجَّل المغربى عبد الصمد عندَه ، وطلَب من جودر الاقتداء به .

ثم أشار إلى العَبْدَيْن فتقدّما ، وأخذا بلجام البغلتين ، وقيّداهما . وما هى إلا هُنيهة حتى كانا قد نَصَبا خَيمة كبيرة فَرشاها ، ووَضعا فى دائرها الوسائد والمساند . جلس بها المغربى وجودر حيث نالا قِسْطاً من الرّاحة .

وبَعْدَ أن تناولا غِذاءهما على عادتِهما . أَخْرج العُلْبتين اللَّتين سَجَن بهما السَّمكتين وَلَدَىْ ملكِ الجن . وأخذَ يقرأُ عليهما ، ويُدَمْدِم ويُهَمْهِم ، حتى تعالى صَوت السمكتين بالاستغاثة ، تقولان : ارحَمْنا يا كاهن الدُّنيا ، لَبّيك ، لبّيك ، نحنُ طَوْع أمْرك .

ولكنّه ظَلّ يقرأ عليهما، ويُهمهم ويُتمتم، حتى تمزّقت العُلبتان ، فصارتا قِطعاً تطايرتْ فى أرْجاء المكان ، وظهر منهما شخصان مكتوفان يقولان :

— الأمان يا كاهن الدُّنيا . ماذا تَوَدّ أن تَفعلَ بنا ؟

قال : أَوَدّ أنْ أحْرِقَكُما ، أو تُعاهدانى على فتح كَنْزِ الشَّمَرْدَل .

قالا : نُعاهدُك ، وسَنفتَح لك الكَنْز ، ولكن لا بُدّ من حُضور جودر الصّياد ، إذْ لا يُفتح الكَنْز إلا بحضوره

قال : إن جودر هنا الآن يرا كما بعينيه ، ويَسْمَعُكما بأُذنيه .

فعاهداه على فتح الكَنْزِ . وطلبا إليه أن يُطلقَهما ليقُوما بعملِهما .

فأطلقهما . وأخرج من جِرابه قَصَبة وألواحاً من العَقيق الأحمر وضَعها على مجْمرة مملوءة بالفحم ، ونفَخ فى القصبة نَفخة واحدة فأوقد ناراً . ثم وَضَع البخور ، وقال لجودر :

— ياجودر ؛ إنى سأقِفُك على ما تَفعَل فى أثناء تِلاوَتى العزائِمَ والرُّقى ، وإلْقائى بالبخور .

قال جودر : نعم ، وسأعمل ما تأمر به ، وألتزم ما ترْسمه لى من حُدود .

قال : اعْلم أنى متى تلوتُ العزائم والرُّقى ، وألْقيت البخور — جفّ ماء النّهر وظهرَ لك بابٌ من الذّهب ، فيه حَلقتان من المَعْدن . فاذهب إلى الباب واطرُقه طرْقةً خَفيفة ، وانتظِر لَحْظة . ثم اطرُقه طرقةً ثانية

أَشَدّ من الأُولى . ثم اطرقْه ثلاثَ طَرَقات متتابعة ، وإذْ ذاك تَسْمَع قائلا يقول :

— مَنْ يَطرُق باب الكُنوز . وهو لا يَعرفُ حَلّ الرّموز ؟!

فَقُل : أنا جودر بن عمر الصَّيّاد .

وحينما يُسمع صَوتُك يُفتح الباب ، ويَخرج شَخص بيده سَيف مَسلول ، ويقولُ لك : إن كنتَ ذلك الرجُل فَمُدّ عنُقك لأطيّر رأسَك ؛ فَمُدّ له عنُقَك ، ولا تَخفْ ، فإنه مَتى رفع يَدَه بالسَّيف وضَرَبك ، وَقَع بَينَ يدَيْك ، ولَنْ يَنالك أذى ، وتكون قد أَبطَلْتَ رَصده . وإذا خالَفْتَـه فإنه يَقتُلُك .

وبَعد ذلك ادْخُل وسَترى باباً آخر ، فاطْرقْه يَخرج لك فارس يَركب فرسًا ، وعلى كَتفِه رُمح ، فيقول لك :

— ما الّذى جاء بك إلى هذا المكان الذى لا يَدخُلُه إنْس ولا جان ؟!

ويَهزُ عَليْك الرُّمح ، ويُلَوّح به مُهَدّدا ، فلا تخفْ ، وافتَح له صَدرَك ، وسيَضرِبُك ، ولـكنه حينما يَبدأ يُلَوّح برُمحه يَقع فى الحال . فتراه جَسَدًا بِلا رُوح . وإن خالَفْتَـه أيضا قَتلك .

ثم ادْخُل إلى الباب الثّالث ، وسيَخرج عَليك شخص فى يدِه قَوْس ونشّاب ، ويَرميك بالقَوْس ، فإن فتحْت له صَدركَ وقع فى الحال ، وإلّا قَتلك .

وفى الباب الرّابع يخرج عليك سَبُع عَظيم ، يَهجم عليك فاغِراً فاه .

فلا تخفْ ولا تهرب ، بل ألقِمه يدَكَ ؛ وستراه يَسْقط على الأرض مُجدَّلاً .

وهكذا يتوالى عليك فى كلّ باب مَن يُخوّفك ويُروِّعك ، فلا تخفْ ولا ترتَع ، بل اصْمد لهم جميعاً . وستجد فى الباب الخامس عبداً أسود ، يقول لك : مَن أنت ؟ قل له أنا جودر . فيقول : إن كُنت ذلك الرجُل فافتح الباب السادس . فتقدَّم ، وقُل : يا عيسى : قُل لموسى يَفتح الباب ، فيُفتَح . فإذا فُتح فادخُل تجِدْ ثُعبانَيْن : أحدُهما عن يمين الباب ، والآخر عن يساره ، يَفتحان فمهما ليُطبقا عليك ، فإذا فتح كلٌّ منهما فمَه ، فضَع يدَكَ اليُمنى فى فَم الثُّعبان الذى على يمينك ، وضَع يدَكَ اليُسرى فى فَم الثعبان الذى على يسارِكَ ، ولا تخفْ لأنَّك إن خِفت قتلاكَ . وادخل حتَّى تنتهى إلى الباب السابع ، وهُناكَ تخرج عَليك أُمُّك . وما هيَ بأُمِّك ، وتقول لك : مَرْحباً بك يا بُنَى ، أقدِم حتى أُسَلِّم عَليك . فلا يَخدعك كلامُها ، وقُلْ لها : امْكُثى بعيداً عنّى ، واخلَعى عنك ثيابك ، فتقول : كيفَ يا ولدى أخلع ثيابى ، وأصيرُ عارية ، وأنا أُمُّك التى أرْضَعْتك فى المَهدِ صَبِيّا ، ورَبَّيْتُك حتى صِرت رَجُلا فَتِيّا ؟!

قُل لها : إن لم تخلَعى ثيابَك قتلْتُك .

وانظُر إلى يَمينِك تجِدْ على الحائط سَيفًا مُعلّقًا فَخُذْه وجَرِّدْه من غِمْدِه ، وأشْهِرْه عَليها ، وأمُرها بخلع ثيابها ، وهدِّدْها بالقتل إن لم تفعل . فتتوَسَّل إليك وتُخادعك . فلا تَسمع لها ، واسْتَمِر على تهديدها بالقتل حتى تَخْلَع

جميعَ ملابسها ، ولا يَبْقى عليها شيء فتَسقط .

حينئذٍ تكون قد حُلّت الرّموزُ ، وأبطلت الأرصاد ، وأَمِنْتَ على نفسك .

اخْط بعد ذلك إلى الدّاخل تجد الذّهب أكْواماً داخِل الكنز ، فلا تأبَه له ، ولا تَعبأ به ، وستَجِد مَقْصورة فى صَدر الكنز ، وعليها سُتُور مَسْدولة ، فإذا أزَحْت تلك السُّتور رَأيت الكاهن الشّمَرْدل نائماً على سَريرٍ من الذهب المُرصّع بالجواهر واللآلئ ، فلا يَخلُبْك منظر السرير ، ولا يَصرف عينك عن النّظر إلى الشّمَرْدَل نفسِه ، فإنه حينما يَقع بصرُك عليه تراه مُتقلّداً السيف ، وبإصْبَعه الخاتَم ، وبرَقبته تتَدلّى سِلسِلة بها المُكْحلة . وعلى رأسِه شيء يَلمع هو كُرَة الفَلك .

انْقَضّ على هذه الأشياء الأربعة غيرَ هيّاب ولا وَجِل ، وانتَزعها منه انتِزاعاً . وإيّاك أن تنْسى شيئاً أوْ تُخالِف ما أوْصَيْتُك به .

فقال جودر : ولكنْ من يَستطيع أن يَرى كلّ هذه الأحوال ولا يَخاف ؟

فقال المغربى : يا جودر؛ لا تَخفْ . ما هِى إلّا أشباح ، وأرصاد الكنْز .

وما زال يُطَمْئِنُه ، ويكرر له الوَصيّة ، ويُؤكد له أنه سالم آمن ، ويُغريه بالجوائز السَّنية ، والعطايا الجزيلة — حتى قال جودر : لقَدْ فَهِمت وعَزمْت ، وتوكّلْت على الله .

فألقى المغربى بالبخور فى النّار . وأخذ فى تلاوة الأوْراد دُون انْقِطاع .

فإذا بماء النهر قد غاض ، وبلعته الأرض ، وظهر قاعه ، وجفت أرضه ، فظهر بابُ الكنز .

نزل جودر إلى البـاب وطرقه . فأجابه صوت يقول : مَنْ يَطرق أبوابَ الكنوز ، ولا يعرف حَلّ الرُّموز ؟!

فأجاب جودر فى شجاعة واطمِئْنان : أنا جودر بنُ عمر .

فانفتح الباب . وخرج له شخص جَرّد السيف عليه ، وقال له :

— مُدّ عُنقَك .

فوثَب قلبـه ، وخانَتْه شجاعَته ، أولَ ما وَقَع بصرُه على السيف المَسْلول ، ولكنه مَدّ عُنُقَه وهو يُغالِب خَوْفه . فما كاد يضربُه حامِل السيف حتى سَقط على الأرض .

فاطمأنّ قلبُه بعضَ الاطمئْنان ، وطرَق الأبواب كلَّها باباً بعد باب ، وكانت كلُّها تُفتَح له ، فيَرى ما نَبّهه له صاحبه ، ويَتذكّر نصيحته فيَعمل ما أمره . فيَنجو ؛ ففَتح صدرَه للفـارس صاحب الرمح ، ولصاحب القوْس والنشاب ، ومدّ يدَه فى فَم الأسد . ثم وضَع كِلتْا يدَيه فى فم الثُّعبانَيْن .

وهكذا استطاع أن يُبطِل أرصاد الأبواب السبعة . وخرجت له أُمه وقالت : مرحباً بولدى . فنظر جودر إليها وقد استعجب ، ثم دهش وارتعب ، وقال لها : من أنت ؟

قالت : أنا أُمُّك التى حَملتْك فى بطنها تسعة أشهر ، وأرضعتْك اللَّبن

من ثَدْيها وربّتْك حتى كبرت ، فكم سهرْت عليك يا ولدى الليالى الطويلة وكم تعبْت فى تربيتك .

فقال لها : اخلعى ثيابَك .

قالت كيف : تأمُرُنى أن أتجرّد من ثيابى يا ولدى ! ؟

قال : اخلَعى ثِيابك ، وإن لم تخلعيها أطحت رأسَك بهذا السَّيف .

ومدّ يده فأخذ السيف المعلّق على الجدَار ، وشهره عليها ، وقال :

– اخلَعِى وإلَّا قتلتُك .

فظلَّت المرأة تحاورُه وتُداوِره ، وتَتوسَّل إليه أن يَترْكها ؛ وظلّ هو يهدّدها ويُلوّح لها بالسيف ، وكُلَّماخَلَعَتْ ثوْباً يقول : اخلَعى الثانى ، وأخذتْ تخلع ملابسها ثوباً بعد ثوب ، وكلما تلكّأت بالغ فى تهديدها — حتى لم يبق عليها غير سراويل تستُر عورتها .

فقالتْ تسترحمه : يا ولدى . هل قُدَّ قلبُك من حَجَر ؟ ! أليس هـذا حراماً ؟ ! أتريد أن تتعرّى أمّك من ثيابها وتتجرّد مِنْ كل ما تلبَس ، حتى ما يَسْتُر عَوْرتها ! ؟ إنها قَسْوة وغِلْظة ، إنها جحود لنعمة الحمل والتربية ، إن هذا الثّدْى الذى أرضعك ، وإنّ هذا الْقَلْبَ الذى ما زال يحنو عليك ، وينعم بنعيمك ، ويَشقى بشقائك — لهما واجب عليك .

تأثّر جودر من كلام الأم ، واستخذى أمامها ، ونَسِىَ ما أمره به الكاهن الساحر عبد الصمد المغربى .

فقال: أصَبْتِ يا أمّاه؟ فلا تخلعى هذه السراويل التى تسترُكِ، وليكُن بعد ذلك ما يكون.

— ما كاد ينتهى من كلامه هـذا حتى صاحت قائلة: قد أخطأت، فأوجِعوه ضرباً، وأشبِعوه لكماً بأيديكم، وَوَكْزًا بأرجلكم. فاجتمع عليه خدام الكنز؛ وأوسعوه ضرباً، وأشبعوه لكماً وَوَكزاً، ثم دفعوا به وألقوه خارج باب الكنز مَغْشياً عليه، وأُوصدت الأبواب كما كانت.

وأبصر عبد الصمد المغربىُّ بجودر وقد قُذِفَ به خارج الكنز، فأسرع إليه يحمله، وصعد به من قرار النهر. ومن ثَم لم تلبث المياه أن عادت تجرى كما كانت تجرى.

وعمل المغربى جهده لإسعاف جودر، والعنايةِ به؛ فلما أفاق من غَشيته قال له:

— ما الذى فعلته يا مسكين؟! وما الذى حدث لك؟!

قال: لقد أبطلت جميع الأرصاد، وحَلَلْتُ كل الطّلاسم، واجْتَزْتُ كل الموانِع. إلى أن وصلتُ إلى شبيهة أمى، فوقع بينى وبينها محاورة طويلة. فأخذت أهدِّدُها لكى تخلع ملابسها كما عرّفتنى. فأخذتْ تخلعُها ثوبًا بعد ثوب، وكلما خلعت ثوبًا تلكّأت فى خلْع الذى يليه، فآمُرُها وأنهرُها، فتنصاع راغمة، وهكذا حتى لم يبق إلا ما يَستُرها، فبكت، وتوسّلت إلىّ بحَمْلى ورَضاعى، وسَهَرِها الليالى من أجلى، وعطفها علىّ، وحُبها لى، فرقّ لها قلبى، ورَحِمْت دمُوعها، وضَعْفها، وقدّرْتُ

أُمُومتها ، وحنانَها ، فعَفَوْتُ عنها ، ولكنى لم أكد أنْطق بكلمات العفو والرِّضا حتى صاحت :

أَخطأ ، اضْربُوه ، فانْهال علىّ الضربُ من أشخاص لا أعْرِف أيْن كانوا ، ولا من أيْن أتَوا ، وما زالوا بى يضربُوننى إلى أن أشرفت على الموت ، فأُغمى علىّ ، ولم أدْر بعد ذلك ما جَرى ، حتى استيقظت ، وانتبهت من غشيتى ، وتفتَّحت عيناى عليك .

فقال المغربىّ آسِفاً : أما قلتُ لك لا تخالفْ أمرى ؟! أما أوصيتك أن تنفِّذ تعلياتى ؟! لقد سُؤْتنى وسُؤت نفسك . فلو أنها خلعتْ ما تبقّى عليها من ثيابها لكنّا قد بلغنا غايتنا . أما الآن فلا بد من إقامتك معى إلى مثل هذا اليوم من العام القادم .

نادى المغربىّ العَبْدَين فى الحال ، وأمرهما بإحضار البَغْلتيْن ، وهَدْم الخيْمَة ، ففعلا ، وركبَ هو وجودر ، وعادا إلى فاس .

(٣)

ومَضى العامُ وجودر مُقيم فى قصر عبد الصمد المغربى ، يجد كل عناية ورعاية ، يأكل ما يشتهى ، ويَلبَس ما يُريد ، ويتنزَّه حيث أحب كما يحب ؛ فلما حلّ اليوم المعهود . استصحب المغربى جودر إلى خارج المدينة وهُناك وجَدَا العَبدَيْن فى انتظارِهما ، ومَعهما البغْلتان وسائر المُعدّات ، فركبا وسارا حتى انتَهَيا إلى المكان الذى نزلا به فى العام الماضى على ضَفّة

النهر ، وهناك نصب العبدان الخيمة ، وفرشاها ، وهيّآ الأرائك والوسائد والمساند ، وأخرج المغربى السفرة فأكلا وشربا . ثم أعدّ قصبته وألواحه واستعدّ لإطلاق بخوره ، وإيقاد ناره ، وتلاوة العزائم والرّقى ، استعداداً لفتح الكنز ، وقال لجودر : أأنت فى حاجة إلى أن أعيد عليك الوصيّة يا جودر ، أم لا تزال تحفظها ؟ قال جودر : يا سيّدى لو كنتُ نسيتُ الضّرب ، أكون نسيت الوصيّة .

قال المغربى : اعْلَم إنّكَ لو خالفْتَ ، أو أخطأت فلنْ تخرج حياً ، وسيقتلك خدم الكنز والموكّلون به . وإن هذه المرأة التى خدَعتك ليست أمّك كما فهمت ، وإنما هى شبَح من الأشباح فى صورة الأم .

وباشَر المغربى تَعاوِيذه ورُقاه كما فعل فى المرّة السابقة ، فجفّ النّهر ، وظهر باب الكنز ، فنزل جودر إليه وطرَقه ، وما زال حتى أبطل الأرصاد السّبعة ، وانتهى إلى أمّه . أوْ إلى شبَحِ أمّه . فلما رأته قالت : مرْحبا يا ولدى وفِلذة كبِدى ، يا من هو فى سُويداء قلبى : مرحباً بحياتى ، فأنا لا أحيا إلّا بِه ، ولا أعِيشُ إلا لَه .

قال : لست بولَدِك يا خدّاعة ، لست بولدك يا غرّارة . اخْلَعى ملابِسَك .

فصارتْ تجادِلُه وتخادِعُه وتراوِغُه ، وتتوسّل إليه بالكلام المعْسُول ، والدّموعِ الغَزيرة ؛ ولكنّ قلبَهُ استحجر وغَلُظ فلم يتأثّر ، وأخذ يزجُرُها وينهرُها ويُخاشنها فى الكلام ، ويُهدّدها ، فلم تجد بُدًّا من خلْع ثيابها

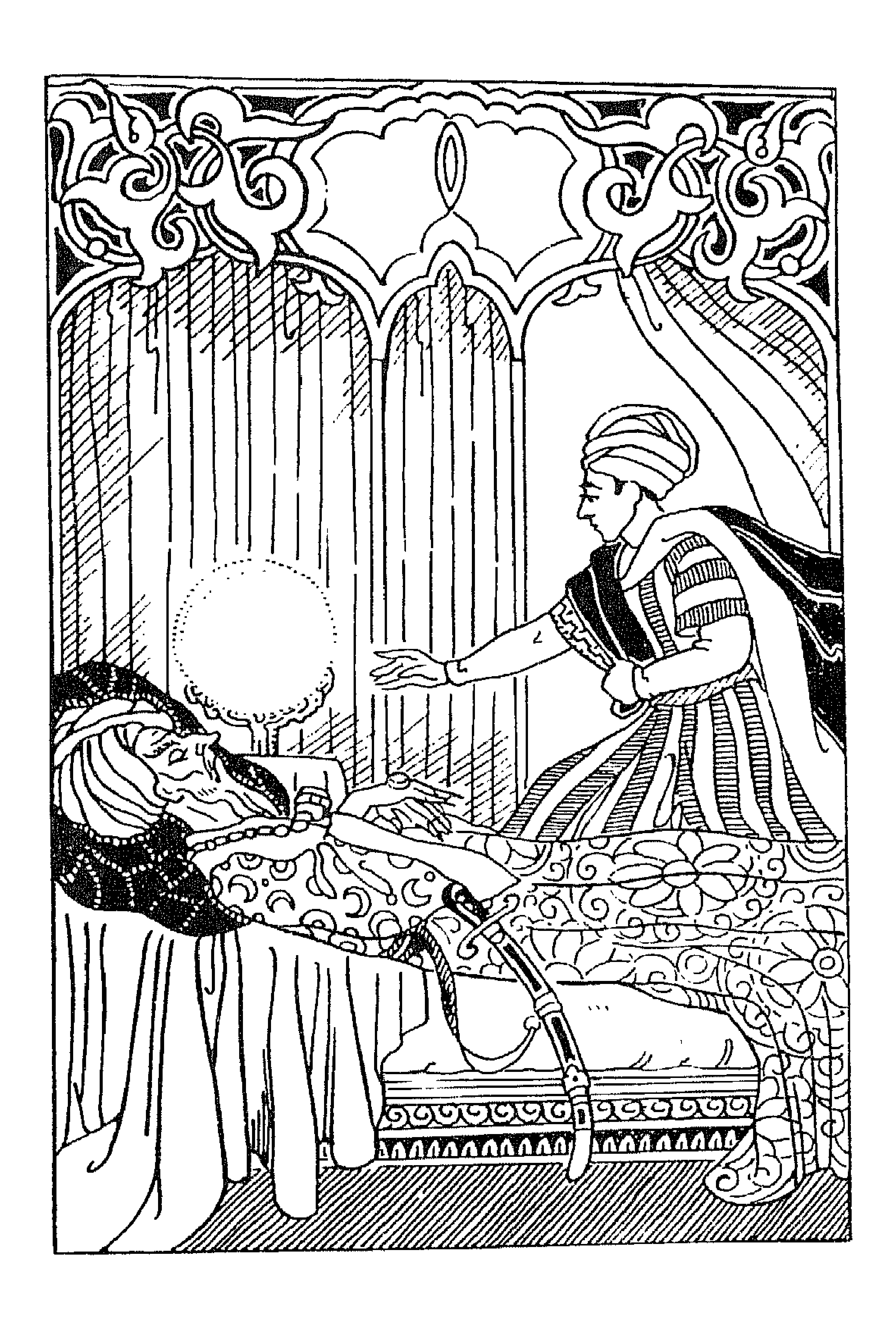
ثوباً بعد ثوب ، وكلما حاولت أن تتلكأ نهرها ، وما إن خلعت آخر قطعة من الملابس التى عليها حتى تلاشت وصارت شبحاً .

خَطا جودر إلى الداخل فبهره ما رأى . رأى الذّهَب أكواماً ، والجواهر تِلالاً . فوقف يتفرّجُ عليها مشدوهاً من كَثرتها ، معجباً من انعكاس بريقِها ، مأخوذاً من شِدّة لألائها ، ولكنّه لم يلبث أن تحوّل عنها ، واتّجه إلى المقصورة ، فأزاح السّتار الذى أُسدِل على بابها ، ونظر فى داخلها . فشاهَد الكاهِن الشَّمَرْدل صاحب الكنز راقِداً على سرير من ذهب ، متقلّدا السّيف ، ورأى المكْحلة تتدلَّى من سِلْسلة على صَدْره ، والخاتم فى إصبعه ، وكُرة الفلك فوق رأسه . فاقتربَ منه وتناول السيف وخلع الخاتم ، ثم أخذ المكحلة ، ودائرة الفلك ، وتحوّل عائداً من حيث أتى . وإذا بِقَرْعِ طُبول ، ونَغَم زمُور ، وأصواتٍ تهتف : هنِّيت بما أعطيت يا جودر .

وما زال قرع الطبول ، ونغم الزمور ، وصَوت الهتاف — يتعالى ، إلى أن غادر الكنز .

وما إن رأى المغربى جودر وهو عائد إليه ، حتى كفّ عن إطلاق البخور ، وتلاوة العزائم ، وبادر فأخذه بين ذراعيه وهو يُقبِّله ، وكأن الدنيا لا تسعهُ لشدة فرحَه .

أعطاه جودر السّيف والخاتم والمكحلة وكرة الفلك ، التى انتزعها من الشمردل ، فأخذها منه متلهِّفاً جَذْلان فَرِحاً . ونادَى من فَوْره العبْدَيْن .



فأمرهما بتقويض الخيْمة ، وإحضار البَغْلتين ، فنفَّذا ما أُمرا به . ولم يمض قليلٌ حتى كان المغربي وجودر في طريقهما إلى المدينة .

ولما اطمأنَّ بهما المقام في القصر ؛ وفَرغا من تناول طعامِهما الذى حَوى كلَّ لذيذ شهيّ ، أخرجه لهما خُرجُ المغربي — قال المغربي لجودر :

— يا جودر ، لقد فارقت أرضك وبلادَك من أجلِي ، وقضيت لى حاجتى ، فصارت لك علىّ أفضالٌ عِظام ، وطَوّقتَ عُنُقِي بجميل لا أنساه ؛ فتَمَنَّ علىّ ما تريد . فإن الله تعالى أعطاك . فلا تستحْى ، وكلُّ ما رغبت فيه فهُو لكَ .

قال جودر : إن كان ولا بُدّ من ذلك فأعطنى الخرج .

فأعطاه المغربى الُخرج .وقال : خُذْه فهو لك ، ولكنه لا ينفعك إلا فى الطّعام ، ولا بُدّ لك من عمل ، تشغل به نفسك ، حتى لا يراك الناسُ فارغاً ، هَمُّك طعامُك وشرابك ، لذلك سأُعْطيك أيضاً خُرْجا آخر مملوءا بالجواهِر والنقود . لتُهَيِّ لك تجارة ، وتصير من كبار التُجار وأغْنائهم .

فرح جودر لذلك ، وأعطاه المغربى خُرجَ الجواهِر والمال ، وخُرْجَ الطعام ، وعَلّمه طريقة استعمال الأخير . وأحْضر له عَبْدا وبغلة ، وقال له :

اركَبْ هذه البغلة ، وسيصحبك هذا العبد ، فهو يعرف الطريق ، فإذا ما وَصلت إلى دارك — فاتْرك البغلة للعبد ، وسيعودان إلينا لأنهما

من الجن . ولا تُطلع أحداً على سِرِّك قطّ .

ثم قبّله وودّعه ، ووضع له الُخرجين فوق ظهر البغلة ، واعتلاها جودر وانطلقت به بِصُحبة العبد .

(٤)

سار جودر فى الطريق عائداً إلى وَطنه وكلّه حنين إلى أَهْله ، تكادُ نفسُه تنطلق شوقاً لرُؤية أُمّه . فلما انتهى إلى بلده ، وهَمّ بدُخول الطريق الموصِّل لمنزله فُوجِئ بها جالسةً على قارعتِه شعْثاء غبراء ممزّقة الثِّياب ، تسأَل النَّاس إحْسانا ؛ فبُهت وذهل ، وكذب عينيه ، وانحدرَ عن ظهر البغلة يتفرّس وجه أمّه ، فإذا بها هى ، فاستطار عقله ، ومدّ يده يرفعُها إليه ، وقد انعقد لسانه عن التفوّه بأىّ لفظ . فما رأته أمّه ، وعرفته حتى ارتمتْ عليه منتحبة باكية ، فأخذ بيدها ، وعاد بها إلى المنزل ، الذى وجده خاليا من كلّ شىء ، حتى من الحصير البالى الذى يجلس عليه ، فأنزل الُخرجين عن ظهر البغلة ، وسلّمها العبد ، الذى أخذها وعاد إلى سيده عبد الصمد المغربى ودخل جودر إلى المنزل ، وقال لأُمه : يا أمى أين أخواى سالم وسليم ، أهما ما يزالان على قيد الحياة ، أم مَسّهما سُوء ، فلم يستطيعا الإنفاق عليك ؟ !

قالت : يا بنىّ ، إنهما ما زالا يعيشان .

قال : فلأىّ شىء تسألين الناس إحساناً

قالت : يا بنيَّ ، عضَّنى الجوع ، ولم أجد ما أُمْسِك به رمقى ، فإما أن أسأل الناس ، وإما أن أمُوت جوعا .

قال : لقد أعطيتك ألف دينار يوم سفرى ، كما أعطيتك قبلها مائتين ، فكيف نفِدَ هذا المال فى ذلك الوقت القصير ؟ ! إنه عامٌ وبعض عام .

قالت : لقد مكر بى أخواك ، وعاودهما الطَّبْع السَّيِّئ ، والخُلق الذَّميم ، فأخذا منِّى المال على أن يستثمراه فى التِّجارة . فأضاعاه وغدرا بى .

قال جودر : لا بأس عليك يا أماه ، فقد عُدْت إليك ، وسيعوِّض الله عليك ، فلا تحزنى ، ولا تبتئسِى ، فهاك خُرجا مملوءا بالمال والجواهر . والآن ماذا تريدين أن تأكلى ؟

قالت الأم : بارك الله فيك وعليك يا ولدى ، فما ذُقت طعاماً مُنذ ثلاثةِ أيام ، وأى شىء يكفى ؟ !

جودر : أطلبى يا أُمى ما تشتهين ، فإنى أُحْضِرهُ فى الحال .

قالت : أريد خُبزاً ساخِناً وجُبْناً .

قال : بل اطْلُبى يا أُمِّى أصْنافا أُخْرى لذيذة تحبِّينها ، اطلبى أشْهى أنواع الطعام ، وأحبها إليك .

قالت : أحضر يا ولدى ما تودُّه ، فكلُّ ما تُحْضِرُه طيب .

قال : إن ما يليق بك يا أُمى هو اللحم المقدد ، والدَّجاج المحمر ، والسمك المقلى ، والحمام المحْلى ، وأنواع الفطائر ، وصُنُوف الفاكهة ، و ...

قالت : ما هذا الذى تقول يا ولدى ؟ ! أتحلم أم تَسْخر ؟ !

قال : لا أقول إلاّ حقًّا ، وسأُحضر لك الآن كلّ هذا

قالت : ومن الذى سيحضره ؟ ! ومن الذى سيطهوه ؟ !

قال جودر وهو يضحك : وحياتِكِ عندى سأُطعمك كلّ هذه الأشياء دون شراء ، ودون طَهْوٍ ؛ فإنك جائعة جِدًّا يا أُمى ، ولن تصبرى حتى نطبخ ، فالأكل مُعَدّ ، وستريْن .

قالت : وأين هذا ، وأنا لا أرى معك شيئًا من الطعام ؟ !

قال : أحضرى لى هذا الُخرج .

فحملت إليه الُخرج فوجدته خَفيفا فارغا ، ليس به شىء . فأعطته إياه وهى فى عجب من أمره . فأخذه ، ووضع يده فيه وقال لها :

— خذى ؛ هذا هو الدّجاج المحمر .

فنظرت إليه والدتُه تتفرّسُه مشفقة ، وقد ظنّت أن ولدها إمّا أن يكون قد جُنّ ، وإما أنه يهزأُ بها . ولكنّها ما لبثت أن أبصرت يده تخرج من الُخرج ، وقد حَمَلت طبقًا مملوءًا بالدّجاج ، ثم آخر مملوءًا بالكباب ، ثم . . . وهكذا حتى أخْرج جميع ما ذكره لها . وهى تنظر إليه فاغِرة فاها ، زائغَة عيناها لشدة دهشتها ، وفَرْط عجبها ، وجودر يبادِلُها النظر مُبْتسما ، وأخيرا نَسِيت ألم الجوع وقالت :

— أين كانتْ هذه الأطباق ، وقد كان الُخرج فارغا ؟ !

فضحِك جودر لِما اعترى أُمّه وقال لها :

— سأشرح لك الأمر يا أمى . اعلمى أن هذا الخُرج أعْطانيه المغربى ، وهُو مَرْصود ، وله خادم ؛ فإذا ما أراد الإنسان أىّ لَوْن من ألوان الطّعام وضع يدَه فى الخرج . وقال : بحقٍّ ما عَليك من الأسماء يا خادم هذا الخرج أَحضِر لى كذا ، فيُحضِره .

فقالت أمه وقد زاد عجبُها ، واشتدت دَهْشتها :

— ما أعجب هذا يا ولدى وما أغربه ! أئذا قُلت له الآن أخْرِج لى شيئًا فعَل ؟ !

قال : نعم ، افْعَلى .

فوضعت يدَها فى الخرج وتَلَتْ الأسماء ، وطلبَت ضِلْعا من اللّحم ، فإذا بالطبق قد صار بالخرج ، فأخرَجتْه فوجدتْ به ضِلعا شَهية .

فضحِكت وضحك ابنُها ثم قال : الآن صرنا فى غِنًى عن مُهِمّة شراء الطعام ، ومشقة طبْخه وإعداده . وكل ما اشْتهتْه نفسنا فهو فى مُتناول يدنا .

وجلس جودر يأْكل مع أمه ، وقد زال عنها بعضُ ما ساورها من القلق ، فعاد إحساسُها بالجوع ، فأقبلت على الطعام تأكل بلذّة ونَهَم ، وأكل معها ابنُها ، وظلّا يأكُلان حتى شبعا .

فلما فَرغا ، قال لها : أفرغى الأطباق وصُفِّيها فى الخرج ، ثم احْفَظيه فى مكان أمين ، وكلما أرَدْت منه طعاما اطلبى منه ، ولا تنسَىْ أن تَتصدّقى ، وأطعمى أخوَىّ إذا حضرا فى غَيْبتِى ، ولكن لا تُخبرى

بأمر هذا الخرج أحدا ، واعلمى أنك إن أذعت هذا السِّر عاد ذلك وبالًا علينْا .

وما هى إلا هُنيهة حتى حضر أخواه سالم وسليم ، وكانا قد علِما بعودته من جارٍ له رآه ، فذهب وأخبرَهُما قائلا :

— أما رَأيتُما أخاكما ؟ لقد حضر من سفَره على ظَهْر بغلة ، يَتقدّمه عبْد ، ويَرْتدى حُلّة مُزركشة فاخرة ، وعليه سيما الجاه والغنى .

فلما سمعا ذلك اعْتراهما النَّدم الشديد على ما صدر منهما فى غَيْبة أخيهما .

وقال سليم لأخيه : سوف تُخبْرُه أمُّنا بما فعَلْناه معها ، ولنْ نستطيع الآن مُواجهته ، والتَّمتُّع بما قد أتى به من خيرات .

فردَّ عليه سالم : إنَّ قلب أمِّنا رحيم جدًّا ، وإنّ قلْب أخينا أرحم ؛ فهى إن أخفَتْ عليه أمرَنا كان خيرًا ، وإن لم تُخفْه فإنه يغفر لنا ذَنبنا ، فهيَّا بنا إليه لنرى ما سيكون .

ذَهب سالم وسليم إلى بيت أخيهما جودر ، وما كان منه إلا أنْ رحَّب بهما ، وقابلهما مُقابلة سَمْحة طيِّبة ، فهش فى وَجهِهما وبشّ ، وهيَّأ لهما مائدة كثيرة الألوان ، لما لاحظ من ضَعفِهما وشُحوب لَوْنهما ونُحولِهما .

وأقبلَ الأَخَوان على الطعام فى نَهَم شديد يلتهمانِهِ التهامًا ، ويَزْدَرِدانه ازْدِرادًا حتى شَبِعا .

فقال لهما جودر : خذا ما بقِيَ من طعام ، وتصدّقا به على الفقراء .

فقالا : ولماذا لا نُبقيه لعشائنا يا أخي ؟

قال : عندما يجيء وقتُ العَشاء ، يأتيكما أكثرُ منه وخَير منه ، والله عندَه خَير كثير .

فأخذا الطعام ، وتصَدّقا به على مَنْ لقياه من الفُقراء .

وفي المساء دخل جودر القاعة التي وَضع فيها الُخرج ، وأخرج منه مائدة كاملة تحتوي على ما يُربي على أربعين لونًا من ألوان الطعام ، ثم خرج إلى أخَوَيْه ، وطلب من أمه إحضار الطعام فأخْرجت الأطباق شيئًا فشيئًا ، وأنظار وَلدَيها سالم وسليم تتْبعانها ذهابًا وجَيْئة في فُضُول وَدَهْشة ، ودعتهم أمّهم إلى المائدة فأكلوا جميعًا .

وما تبقّى بعد طعامهم تصدّقوا به كذلك على الفُقراء ، وظلّوا على هذه الحالة أيّامًا .

فتساءل الأخوان عن سرّ هذا الطعام الهنِيّ الشّهيّ ، دون أن يَرَيا لحمًا يُشْتَرَى ، وخُضراً تُجاب من السّوق ، وموْقداً يُوقد ، أو أي شيء يدل على أن طعاماً يُعَد ؛ وصمّما على معرفة الأمر . فانتهزا فُرصة غياب جودر ، وقالا لأمِّهما :

— يا أمنا ، نحن جائعان ونريد طعاماً .

فنفَذت أمُّهما إلى الداخل ، وأحضرت لهما من الُخرج الطعام ساخِناً .

فقالا : من أين هذا الطعام الساخِن ، وما رأيناكِ جهزْتِ شيئاً ، ولا أَوْقَدْتِ ناراً ؟ !

قالت : خَير الله كثير .

ولكنهما لم يقتنعا ، وما زالا بها حتى أعلمتْهم أمر الخُرج ، وطلبتْ منهما كِتْمان السِّرِّ .

فقالا : السِّرُّ مكتوم يا أُمَّنا ، ولكنْ عرِّفينا كيفَ يَخرج الطعام من الخُرج ؟ !

فأرتهما الخُرج ، وعرّفتهما طريقته، فوضَعا أيديهُما فيه ، وطلبا بعض أصنافِ الطعام ، فخرجتْ لهما ، فصارا بعد ذلك كلما أرادا منه شيئاً طلباه دون أن يَعلَم أخوهما شيئاً .

ومَرَّت الأيَّام . فقال سالم لسليم : إلى متى ونحن عند جودر في مَرتَبة الخَدَم . يُؤْوِينا في منزِله ، ونأكلُ من صَدقته ، ألا نَعَمَل عليه حيلة ، ونأخُذ هذا الخُرج ونَفوز به ؟

فقال أخوه : وما الحِيلة ؟

قال : نَبيعهُ لرِئيس بَحْر السُّويس .

قال : وكَيْف نَبيعه ؟

قال سالم : أَذْهب أنا وأنْت لِذلك الرّئيس ، ونَسْتَضيفُه مع اثْنَين من رِفاقه . والَّذِى أقُوله لجودر تُؤَمّن عليه ، وآخِرَ الليل أُرِيك ما أصْنع .

ولم يَتَوانيا في تَنفيذ خُطَّتِهما الجهنّمِية ، فذَهبَ في الحال إلى ذلِك

الرَّئيس ؟ وما لَبِثا أن أسَرَّا إليْه رَغْبَتَهما ، فقالا :

— أيُّها الرئيس . لقد جِئْنا فى أمْر نَوَدُّ أنْ تُساعِدَنا عَليْه ، وسَوْف يَسُرُّك .

قال : خَيراً . ما هُو ؟

قالا : نَحنُ أَخَوان ، ولنا أخٌ ثالِث فاسِدٌ شِرِّير ، فيهِ قَسْوةٌ وضَرَاوَة ، يَعُق أُمّه ، ويُؤْذِى إخْوتَه . فلا خَيْر فيه : ماتَ أَبُونا ، وخلّفَ لنا جُمْلة مِن المالِ ، قسمْناه بَيْننا ، فأخذ نَصِيبَه ، وصَرَفَه فى وُجُوه الفِسْق والفسادِ . ولما بَدّدَ مالَه وافْتَقَر عادَ علَيْنا يُشاكِسُنا ويَشْكُونا ، ويَتَظلّم لدى الحاكِم مُتَّهِماً إيانا بِأَخْذ أَمْوالِه مِنه ، وظلِلْنا هكذا فى تَقاضٍ وتَشاكٍ حتّى ذهَبَ مُعْظَم مالِنا ، وأصْبَحْنا فُقَراء ، وهُو لا يكُفُّ عنّا . فاسْتَبَدّ بِنا الكَرْب ، ومَلكَنا الضِّيقُ ، فَرَجاؤُنا مِنْك أنْ تَشْتَرِيه منّا ، وتُرِيحَنا مِنه .

فقال لَهُما : هل تَسْتَطِيعان أنْ تَحْتالا عليْه ، وتَأتيانِى بِه إلى هُنا . وأنا أرْسِله سَرِيعاً إلى البَحْر ؟

قال سالم : لا نَسْتَطيع إحْضاره هُنا ، ولكنْ نُدَبِّر لكَ حِيلَة ، وتُعاوِنُنا أنت على تحقِيق هذَا التّدْبير ؛ وذلك أنْ تكُون أنْتَ ضَيفَنا هذه اللّيلة ، ومَعَك اثْنان من أعْوانِك لا غَيْر . فإذا ما نام نَتَعاونُ علَيْه نَحنُ الخمسْة ، فنُوثِقُه ونُكَمِّمُه ، ونأخُذه تَحْتَ جُنْحِ اللّيلِ ، وتَفْعَل به ما تَشاء .

قال : لَـكُما ذَلِكَ ، ولـكِن بِكَمْ تَبيعانِهِ ؟

قال سالم : بما تَشاء . قال : بِأَرْبَعِين دِينارا .

قالا قَبِلْنا . وحِينما تأتِي فى المساء سَتَجِد أحدَنا مُنْتَظِرك على رَأْس الطَّرِيق . ثم حَدّد له مَوْقع الدّار . وعَادَا إلى جودر .

وبعد أن استَتَبّ بِهما المجلْس قال سالم لجودر ، وهُو يُظْهِر الخَجَلَ والتَّأَسّف :

ـــ يا أخِي . إن لى صَاحِبا استَضَافَنِي مرّاتٍ كثِيرَة فى دَارِه ، فى أثْناء غِيابِك ، وله علىّ أياد كثيرة لا تُحْصَى . وقد قابلَنِى اليَوْم ، فحَيَّانِى ، ودَعانِى إلى مَنْزِله فَقُلتُ له أنا لا أسْتَطِيع فِرَاق أخِي . الذى عاد إلَيْنا بَعْد غيابٍ طَوِيل ، وأنا لا أسْتَطِيع أنْ أصْبر على فِراقِه . فقال : أحضِرْه مَعَك فقُلتُ : إنه لا يَقبل ، ولـكِن يَسُرّنى ، ويَسُرُّ أخى أنْ تكونُوا أنتُم فى ضِيافتنا ، وكانَ جالساً مع أخَوِيه ، وقد ظَنَنْتُ حينَ قُلْتُ له ذلك أنه سَيَعْتذِر ، ولَنْ يَقبَل ؛ ولـكنه قبل ، وقالَ : انتَظِرنى على رَأْس الطرِيق ، وسَأحْضر أنا وأخَواى ، وأنا أخْشَى أن يَصْدق فى وَعْده فيأتى وأنا خَجِل مِنْك لدعوتى إيّاهُم من غَيْرِ اسْتِئْذَان ؛ فهَل تأذَن لى يا أخِي فى استِضافتِهم هذهِ اللّيلة ، وعَدَم إحراجى مَعهم .

فقال جودر : ولأَىّ شَىْء تَخْجَل وتأسَف ، أمَنْزِلنا ضَيق لا يسعهُم ، أمْ طَعامُنا قليل لا يكفيهم ؟ أحْضِرهُم وَسوْف نُطعِمُهم أشْهى الأطْعِمَة . ولو أحضرتَ أىّ إنْسانٍ فى غَيْبتى فما عَلَيْك إلاَّ أنْ تطْلُب مِنْ أمّك

ما تشاء من طَعام وهى تُحْضِرُه لكم . اذهَبْ وأحضِرْهم ، فمرحبًا بهم وأهْلاً وَسَهلاً .

فنهض سالم وقبَّل يد أخيه شاكراً . وذَهب ينتَظِر من سيَدْفع بأخيه إليهم بائِعًا .

حضر سَيِّدُ بحر السويس ورَفِيقاه ، واسْتَقبلهم سالم أحسن استقْبال ، وذَهَب بهم إلى البَيْت ، وتلقَّاهم جودر بالبِشْر والتَّرحاب ، وجلس مَعَهم يُؤْنِسهم ، ويُهَيِّئ لهم أسباب الرّاحة . ولما أمْسَى المساء لم يَتَوان لحظَة فى الدُّخُول إلى الْخَرْج ، وإحضار ما لذّ وطابَ من طَعام وشَراب ، وفاكِهة وحَلْوى ، وقدّم لهم ما سَرّهم وأعْجَبهم .

كلُّ ذلك والبحارة يَظُنُّون أنَّ هذا الإكْرَام مِن إعدادِ سالم لهم .

وانتصف اللّيْل ، فَطَلب مِنهم سالم القيام إلى المضاجع ليناموا . فَرقَدُوا جَميعًا ، وتظاهروا بالنوم حتى نام جودر وغَفِل ، فقامُوا إليهِ وتعاونُوا عليْه ، فلم يُفِق إلا والكِمامة فى فمِه ، والوِثاقُ حول ذِرَاعيه ، وكَتِفيْه ، وسَرعان ما حَمَلُوه ، وخَرجُوا به تحتَ جُنْحِ اللَّيل يخْفيهم الظَّلام .

ولما أصْبح الصّباح دخل سالم وأخُوه إلى أمِّهما فقالا لها :

ــ يا أُمنا ، إن أخانا جودر لم يَسْتَيْقظ .

قالت : أيْقِظاه .

قالا : أينَ هو رَاقد ؟

قالت : عِنْد الضيوف .

قالا : لا يُوجد هناكَ أحد . ولعله ذَهب مَعهم ونحنُ نائمان . فقد اشْتاق إلى السَّفَر ، ورَغِب فى دُخولِ الكُنُوزِ ، وقد سَمِعْنا المَغارِبة أمْس يقُولون له : نأخُذُك معَنا وتَفْتَح لك الْكَنْز .

قالت أُمُّهما دَهشةً من قولهما : وهَل اجْتَمع بالمَغاربة ؟!

قالا : أما كانُوا ضُيوفاً عنْدنا ؟!

فجزعَت وقالت : أَحقًّا ذهب معهم دون أن يُخبرَنى ؟!

ثم أجْهَشَت بالبُكاء المُر ، ونَشجت نشيجاً مُحزناً ، وأخذتْ تدعُو له الله أن يُلهمَه الرَّشاد ، ويَرُدَّه إليها سالماً غانماً .

وكان ولداها لا يُعجبهما ما يَبدو منها من عَطف وحَنان على جودر ، ويُؤلمُهما أن يكون أحبَّ إليها منهما ، ويَرْميانها بالضلالِ وسُوء الرأى . فلما سمِعا منها أنها تتمنى له أن يعود سالماً ، وأنها تدعو الله أن يُهيِّئ له من أمرِه رَشَداً بَسطا — لسانَهما فيها ، وأسمَعاها كلاماً بذيئاً ، وكادا يَضربانها ، وقالا لها :

أتُبكِّنين كل هذا الحُب لجودر ، وتجزعين كلَّ هذا الجَزَع لغيابه ، ونحن لا يَهُمك غيابُنا ولا حُضورُنا ، ألسنا ولدَيك كما أنه ولدُك ؟!

قالت : أنتما ولداى ، ولكنكما شقيَّان تَعِسان ، لا خَير فيكما ولا نَفْع ، أما جودر فشفِيق رحيم ، أكرَمنى كثيراً ، أفلا يَحق لى أن أبْكى عليه إذا غاب ؟!

فلما سمِعا منها هذا الكلام عادا إلى سبِّها وشتمِها بقوارص الكَلِمِ ، ودَخلا يُفتّشان عن الخُرج حتى وَجَداه ، وعثرا أيضاً على خُرْج الجواهر والمال .

فقالا لأُمهما : هذا هو مال أَبينا الذى تآمَرتِ على إخفائه أنت وابنُك جودر .

قالت : لا والله ، إنما هو مالُ أخيكما جودر جاء به من بلادِ المغاربة .

قالا لها : كذبْتِ ، بل هو مالُ أبينا ، ونحن نتصرّف فيه .

واغتَصبا المال وقَسَماه بينَهما ، واخْتلفا على الخُرْج المَرْصود . فقال سالم : أنا آخُذه ، وقال سليم : أنا آخُذُه .

فوقعتْ بينهما مشادَّة ومناقشات حامية ، فقالت الأم :

يا ولدى ، الخُرج الذى فيه المال والجواهر قَسَمتماه ، وهذا لا يُقسَم ، ولا يُقوّم بمال ، وإن انقطعَ نِصفين بَطل رَصَده ، فاتركاهُ عندى ، وأنا أُخْرِجُ لكما ما تأكلانه ، وقتما تشاءان ، ودعانى أجد بينكما ما أُمسِك به رَمقى . حتى إذا ما حضَر أخوكما لا تَفتضحان أمامه .

فَرفضا ، وأخذا يتجادلان ويتشاحنان . فسَمِع عِراكهما رَجُل قوّاس من أعْوان المَلِك يَقطن فى منزِل مجاورِ لِمنزِل جودر ، فجلسَ يَسْترق السّمع من طاقة بين الدّارَين ، وعرّف ما كان من أمْر الخرج الذى اخْتلفا بشأنه .

فلما كان الغَدُ دخل ذلك الرّجُل القوّاس على المَلك وأخْبَرَه بما سمِعه .

فأرْسل المَلك إلى أَخَوَىْ جودر ، وجاء بهما ، وسألهما ، فأنكرا ، فَشدّد عليهما ؛ فأقرّا ، فأخذ منهما الخُرجَين ، وأمر بِسَجْنهما .

أمّا أُمُّهما فقد رتّبَ لها الملِك ما يَكفيها من الرِّزْق الجارى كلّ يوم .

(٥)

أما جودر فإنه ظلّ مع هؤلاء القوم البَحّارة أسِيراً ، يَخْدمُ خِدمة العبيد سنةً كاملة لا يَجد فَكاكاً ولا مَفرًّا . حتى حَدثَ فى أثناء سَفْرة من سَفراتهم بالبَحر أن خَرجَتْ عليهم رِيحٌ شديدة عاصفة أخذت تلعبُ بالمرْكب ، وتلقَّفتْه الأمواج ، ثم قَذَفتْ به أخيراً إلى نُتوء صَخرى فى وسَط البحر فارتَطم به ارتطاماً شديداً ، وغَرِقَ جميعُ ركّابِه من البَحارة والملاّحين والتجّار ، ولم يَنْج إلا جودر ، الذى رَكبَ على لَوْح من الخشب ، وتشبّث به ، فما زال الموْج يدفعُه هنا وهناك حتى انتهى إلى الشاطئ .

خرج جودر من الماء ، وقد نال منه التّعبُ مَنالا عظيما ، فرأى أرضاً واسعة ، يعجز البَصر عن رُؤْية آخِرها ، فهى تمتد وَراء الأُفق إلى مسافات بعيدة ؛ فجلس على الشاطئ حتى استْراح من التعب ، وحتى بَرِئ من الدُّوار الذى أصاب رأسه ، ثم سار تَعلو به النِّجاد ، وتَهبط به الوِهاد ، إلى أن وَصَل إلى نَجْع يَسْكنه بعضُ الأعراب ، فسأله أهله : من أنت ؟ ومن أين أتيت ؟ وما حالك ؟ فأخبرهم بما حَدث للمركَب ، وبما حَدث له

بعد ارتطامه بالصخر الناتئ فى البَحر ، وما كان من شأنه مع لَوْح الخشب الذى أنقذَه .

وكان أهلُ النجع يَسْتضيفون تاجرا من أهل جدة ؛ فلما سمع حديثه أشْفق عليه ؛ فقال له :

— يا مِصرى ، أتخْدم عندى ؟ أَكسوك وأُطعمك وآخذك معى إلى جدة .

أجاب جودر : نَعم .

فأخذه المَربى معه إلى جدة ، وأحسن إليه ، وبالَغ فى إكرامه ، لما عَرف من جَميل خُلقه ، وهدوء طبْعه ، وسلامة قلْبه .

ولما جاء مَوْسم الحج ، قصد سيِّدُه إلى مكَّة لِأَداء فريضتِه ، وصحبَ جودر معه .

فبينما جودر يَطوفُ بالحرم ، إذا به يَلْتقِى بصاحِبه عبد الصمد المغربى يَطُوف أيضاً حول الكَعْبة .

فما وَقع نَظر جودر عليه حتى رَمَى بنفسه بين ذِراعيه ، وَبكى . فقبَّله المغربى ، وسأله :

— ما بِك يا جودر ؟ وما حالُك ؟

فانْتَحى به جودر ناحِية ، وقَصّ عليه قِصته مع أمه وأَخوَيْه .

فطيَّب المغربى خاطِره ، وقال له : لا تحزَن يا جودر ، سَيزول عنك كلّ شر .

وأخذه إلى مَنزله ، وأخرج له حُلةً ثمينة غالية ، ألبَسَه إياها . ثم أحْضر تَخْتَ رَمل ، وأخَذ يتلو كلاماً ، ويحسِب أرقاما ، ويَخُط على الرمل بأصبَعه خُطوطا ، ثم قال لجودر : أتدْرى يا جودر ما حَل بأخويْك ؟

قال : ماذا ؟

قال : إنَّهما الآن سَجِينان فى سِجن مَلك مصر . فابْق أنتَ الآن معى حتى تَقْضى مناسكك . وبَعـدها لا يكون لك إلا الخير ، ولن يُصيبَنا إلا ما كَتَب الله لنا .

فقال جودر : هَل يسمح لِى سَيدى أن أذهب فأُعلمَ التاجرَ الذى أُقيم عِنده أنى سأبقى معك .

قال المغربى : لا بَأس ، اذهبْ إليه وأخبره ، لأن فى ذلك وفاء له ، واعترافاً بجَميله ، وعُد إلىّ على عَجل .

فذهب جودر إلى التاجر العربى وقال له : يا سَيّدى . لقد رَأيت أخى يُؤَدِّى مناسِك الحج ، وتَعارفنا .

فقال التاجر : أحضِرْه لينزِل ضَيفاً عَلَيْنا .

قال جودر : إنه غَنِى ، ومن أصحاب المـال ، وأرباب الثّراء ، وهُو يَودّ أن أنتَقِل إليه ، وأُقيم معه .

قال التاجر : إنّا نُسَر لما فيه راحتُك يا جودر .

ثم نَهض فأحضَر له عِشرين ديناراً ، وقال له : خُذْ هـذه ، لأُبرِّئ ذِمّتى ، فهى أجر ما أدّيت لى من عَمل .

فأخـذها جودر ، وودّعه ، وخَرج ، فرأى رَجُلا فَقِيرًا واقِفاً على جانِبِ الطريق يسأل الناس ، فأعطاه العِشرين دينارا ، وذهَب إلى المَغربى فأقام عِنده .

ولما قَضيا مناسك الحج . أعْطَى المغربى جودر الخاتَم الذى أتى به من كَنْزِ الشمردل .

وقال له : خُذْ هـذا الخاتم فإنه سَيُبلغك مرادَك ، فإن له خادماً اسمه الرّعد القـاصِف . فإذا ما أردْتَ أىّ شىء ، فادْعك الخاتم يَظهر لك الخادم ، وأْمره بما تَشاء فإنه لا بُدّ فاعله .

ثم دَعك الخاتم . فظهر الخادِم ونادَى : لبّيْك يا سَيدى لبيك ، أى شىء تتَمنى فأُحقق لك ما تَمَنَّيت ؟ أتُريد أن تُعمّر مدينة خَرِبة ؟ أم تُريد أن تُخَرب مدينة عامِرة ؟ أمْ تريد أن تَقتُل مَلِكا ؟ أم تُريد أن تَكْسِر جَيْشا ؟ أنا رَهن أمْرِك ، وطوع إشارتك .

فقال له المغربى : يا رَعد ، هذا هو سَيِّدُك من اليَوْم ، فاستَوصِ به خَيْرا .

ثم صرفه وقال لجودر : جرّب أنت الآن . ادْعك الخاتم يحضر لك خادمه ، وأْمُره أن يذهَب بك إلى بَلدِك فى هذا اليَوْم ؛ فلن يُخالفَك ، وسَيَحْمِلك على ظَهْره ، ويَطير حتى يَصِل بك إلى دارِك . وأنت لا تجْهَل مِقدار هذا الخاتَم ، فحافظ عليْه تَنل به كل أغراضِك . وودّع كلٌ منهما الآخَر وافترقا .

دعَك جودر الخاتم ، فإذا الخادم بَيْن يديه . فقال له : انقلنى إلى مصر اليوم يا رَعْد .

قال : لَك ذلك .

وحمله ، وطارَ به من الظُّهر إلى مُنْتَصف الليل . ثم نَزل بهِ فى بَيْت أُمّه ، وانصَرف ، فدخل جودر على أُمه وسلم عَليها ، فعانَقَتْه ، وبكَتْ ، وانتَحَبَت ؛ فسألها عن أخَوَيْه ، فأخبرتْه بما فَعله معَهما الملك حيث سَجَنهما ، وأخذ الْخرْجَيْن .

فقال لها جودر : لا تَجْزعى يا أُمى ، سيعود لَك ولَداكِ ، وسَيعودُ لنا الْخرجان .

فقالت : باركَ الله فيك وعليْك يا ولدى ، وأبقاكَ لنا ذخرا ، وجَعلك دائِمًا مِن أبناء السعادة الذين يبرون أمهاتِهم ، ويَعطفون على إخوتِهم ، ويَتسامحون معهم ، ويعفون إذا قَدروا . ولكن كَيْف تُحضرهما وهما فى سِجْن الملك ؟ !

قال : سترَين يا أُمى .

ودعك الخاتم ، فحضر الخادِم ، وقال : لبّيْك يا سيدى ، اطلب تُعْط .

قال جودر : أمرتُك أن تَجِيء بأخَوَىّ من سِجْن الملك .

قال : سَمعًا وطاعةً يا سَيدى .

وكان سالم وسليم فى أشدّ ضيق وأكرَب حال مِن ألم السِّجن وعَذابه . فصارا يَتمنَّيانِ الموت ، ويقول أحدهما للآخر : لَقد طال بِنا السجن ،

وعَظُمَت علينا المَشقّةُ ، واشتَدّ بنا الكَرب ، وآذانا الضِّيق ، فإلى متَى نَرسُفُ في الأغلال ، ونُضرَبُ بالسِّياط ، ونُكَلَّفُ أعمالًا شاقّةً لا قِبَلَ لنا بها ، ونُحرَم نسيم الحرِّية ؟ !

وكانا كلما نَدبا سُوء حظِّهما تَذَكرا أخاهما ، ونَدِما على ما فَعلاه به ، واعتَقدا أن ما حصل لهما انتِقام من الله بسبب غَدْرهما وخيانَتِهما ، وبَيْعهما إيّاه بَيع السائِمة لصاحب بَحر السويس ؛ ثم هُو انتقام من الله أيضا لأنَّهما تكرر منهما عقُوقهما لأمِّهما ، وإهانتها .

فبَيْنَما هما كذلك يَنْدبان حظَّهما إذا بالأرض قد اهتَزّت ، ثم انْشَقّت ، وخَرَجَ عليهما الرّعْد القاصِف ، وحَملهما ونَزل بهما عِند جودر ، وقد أصابَتهما غَشْية من شِدَّة الفزَع .

فلما أفاقا من غَشْيتهما ، وجـدا أمامهما جودر ، وأُمهما إلى جَانبه . فقال لهما :

— مرحَبًا يا أخويَّ العزيزَيْن ، لا أوْحش الله مِنكما .

فأطْرقا برأسَيْهما إلى الأَرض ، وأَجْهشا بالبُكاء .

فقال لهما : لا تبكِيا ، فالشّيْطان والطّمع ألجآكُما إلى ذلك فبِعْتُمانى ؛ ولكنى أتَسلى بيُوسف ، فقد فَعل به إخوتُه أفظع من فِعلِكما بى ، فقد رَمَوه فى الجبّ ، وكذَبوا عَلَى أبيهم ، وقالوا : إنّ الذّئب أكله . ولكن تُوبا إلى الله واستَغفراه لَعله يغْفر لكما ، وهو الغفور الرحيم . وإنى قد عَفوْت عنكما ، فلا بأس عَليْكما .



ثم أخذ يقُص عليهما ما قاساه من مَشاق ومَتاعب إلى أن التقى بالشيخ عبد الصمد ، وأخبرَهما خبرَ الخاتم ، فاطمَأنّ قلباهُما ، وقالا : يا أخانا ؛ إن عُدْنا إلى ما كنّا عليه من ضَلال ، فافعلْ بنا ما تشاء .

قال : لا بَأس . ولكن أخبِرانى بما فعل بكما الملِك .

فقالا : ضَرَبنا وهدَّدَنا ، وأخذَ الخُرْجَين مِنّا .

قال : لا أُبالى .

ودَعك الخاتم ، فحضر خادمه . فقال له : أمَرْتُك أن تأتينى بجميع ما فى خَزائن الْمَلِك من جواهر وغيرِها ، ولا تُبْق فِيها شَيئاً ، وتأتى بالخُرج المرصُود وخُرْج الجواهر اللذيْن أخَذهما الملِك من أخَوَىّ .

قال : سمْعاً وطاعة .

وذهَب من فَوْره ، وجَمع ما فى الخِزانة وحَمله ، وحَمل الخُرجَيْن ، ووَضَع كلّ ما أتى به أمام جودر .

— فقال له جودر : أمرتُك أن تَبْنِى لى فى هذه الليلة قَصْراً عالياً وتنقشه ، بماء الذهَب ، وتفْرِشه فَرْشاً فاخِراً . ولا يَبْزُغ النهار إلا وأنت قد أتمَمْته ، وهيَّأت فرشه ، وأثاثه .

قال الخادم : لك ذلك يا سيدى .

ونزل إلى الأرْض ، وجمع أعوانه ، وأمَر ببناء القصر . فتَعاونوا جميعاً على بنائه ، فمنهم من قَطع الأحْجار ، ومنهم مَنْ بنى ، ومنهم منْ نَقَش ،

ومنهم من فَرش. فما طلع النهار حتى كان القَصْر قائمًا شامخًا، مفروشًا، يزرى بقصر الملك.

فذهب الخادم إلى جودر، وقال: يا سيدى؛ لقد تَمّ بناء القَصْر، وكَمُل تأثيثه، فاحضُرْ وشاهِده.

فتوجَّه جودر ومَعه أُمُّه وأخَواه لمشاهَدَة القَصْر، فرأَوْا عَجَبًا. رأَوا قَصرًا مُنيفًا عاليًا، قائمًا على أَعْمدة من الرّخام اللامع المصْقول، طِلاؤُه من ماء الذهَب، وأرضُه من الفُسَيْفِساء والمرْمَر، تتوسَّط ساحتَه نافورة ماء عظيمة، يَضْرِب ماؤُها فى الهواء، ثم يَتَساقَط ويسير فى قَنوات متَشعِّبة جارية تَصُب فى أرض بستان قد نَضر وازْدَهر ونوَّر وأثمر، وفُرِشت أرضُ غُرَفه بالبُسُط الحريرية الخَضراء، واسْتدارت الأرائك والوَسائد، ونُصِبت الأسِرّة، ومُلِئت الأصْونة بالملابس الفاخِرة، والجواهر الثَّمينة؛ وفى الجملة أُعد القصْر إعدادًا لم يحدُث لإنْس من قَبْل.

وعلى الرغم من سابق عِلْمهم بما سَيَكون عليْه القصرُ من الفَخامة والأبَّهة والرَّوْعة. وبِقَدْر اقتِناعهم بمقدرة الخادم على فِعل كلِّ شىء، فقد بَهرهُم ما شاهَدوه من جَمال القَصْر، وشدَهم ما رأَوْه من عَظمته.

فقال جودر: ستَسْكُنين هذا القصر يا أمى.

ففَرِحت أمُّه، ودَعَتْ له دَعَوات صالحة.

ثم قال جودر لخادِم الخاتم: آمُرُك أن تأتيَنى بأربعين جاريةً بيضاء، وأربعين جاريةً سَوْداء، وأربعين مَملوكا، وأربعين عَبدًا.

قال : لك ذلك يا سيِّدى .

وذهَب مع جماعةٍ من أعوانه ، وجَلبوا الجوارى والعبيد من مُخْتلف البلاد ، وعرَضهم على جودر فأَعجَبوه .

وقال له : أحضِرْ لـكلِّ شخص منهم حلةً ثمينة ، كما تُحضر لى ولأُمى ولأخوَىَّ ملابس من أفخر الثياب ، غير ما هو محفوظ فى أَصْونة القَصْر .

فأَحضرَ لهم جميعاً ما يلزَمُهم من الملابس ، فارتدَوْها .

وقال جودر للجوارى : هذه هى سيِّدتكُن فاخدمْنَها ، ولا تَعصين لها أمْرًا .

وأشار إلى أمه . فتقَدّمْن إليها ، وقبَّلْن يدَها .

أما أخَواه فقد أفرد لـكل منهما جانباً من القصْر ، وأعطاه مَنْ يحتاجُ إليه من جَوار وخَدم . وسكَنَ هو وأمُّه فى القصر .

أما ما حصل فى قَصْر الملك ، فقد أراد الموكَّلُ بخزائن الملكِ استخراجَ جُملة من المالِ للإنفاق ، ففتَح الخزانة فلم يجِد فيهاشيئًا ، فذُعِر ذُعرًا شديدًا ، وفزّعه أن يراها خالية وقد كانت مليئة .

فصاح صَيْحة عظيمة ، وخَرج مُهروِلاً إلى الملك ، وأخبره أن الخزائن خلَتْ من جميع ما كان بها من مالٍ وجواهِر ، وأصبحت فارغة .

فغَضِب الملكُ ، وقال : ماذا صَنَعت ؟ وأين ذَهَبت الأموال ؟ !

قال : والله ما صنعتُ فيها شيئاً ، ولا أَدْرى سببَ فَراغ الخزانة . فتَحتها بالأمسِ فكانتْ ممتلِئة ، وفتَحتُها اليومَ فوجدْتُها فارغة ، ليسَ

فيها شيء . أبوابُها مُغلَقة لا ثقْب بها ولا كَسر .

قال الملك : تفقَّد الخُرْجَيْن ، لعلّك تجِدُهما .

قال : تفقَّدْتُهما يا مولاى ، فلم أجِدْهما .

قال الملِك : ألمْ تجِدْ حائطاً مَنقوباً ، أو باباً مَفتوحاً ، أو قُفلا مكسوراً ، أو أىَّ شيء تستطيع أن تَتصور منه بعضَ التصوُّر كيف وقَعت الجَريمة ؟

قال : لا يا مولاى ، كلُّ شيء طبيعى إلّا أنّ الخزائِن فارغة .

فغَضِب الملِك غضباً شديداً ، وغلى دَمُه ، وانتَفخت أوداجُه ، وكاد لا يُصدِّق الخبرَ ، ولكنه هَمَّ قائماً ، وتوجَّه إلى الخِزانة فوجدها فارغة كما أخبره خازِنُه ، فزاغَ بصرُه ، وكادَ يذهبُ عقلُه ، ويَطير صَوابَه ، وصار يَضْرِب كفا على كفٍّ تارة ، ويَعضُّ إصبَعَه تارةً أخرى .

وخرجَ إلى دِيوانه مَغيظاً مُحْنَقاً ، يكادُ الشررُ يَتطاير من عَينيه ، وعَقَد مجلسَه ، وأمر بإحْضار كِبار عَسكره ، وقال : سُرِقت أموالى الليلة .

دَهِش جُنود الملِك وضُبَّاطه لهذا الخبرِ ، وأخَذ ينظُر بعضُهم إلى بعضٍ ، وعُقِدَت ألسنَتهم بعضَ الوقْت ، ثم قال أحدُهم : وكيف كان ذلك يا مولاى ؟!

قال : اسألوا خازِنَ المال ، الموكَّل به .

وكان الخازِنُ حاضراً . فاستَفهموه ، فأخبرَهم بما رأى . فشاع العَجبُ بين جميع الحاضرين من هذا الأمْر .

وبينما هم فى مجلسهم هذا تتملكهم حيرةٌ شديدةٌ ، واضطرابٌ وارتباكٌ إذ دخل القوّاسُ الذى كان قد أبلغ الملكَ خبرِ سالم وسليم ، ووجّه الخطاب إلى الملك قائلاً :

— يا ملك الزمان ؛ إنى فى دهشة من أمرى . فإنى طول الليلة الماضية أشاهد بنائين يبنون ، وعمالاً يعملون ، فى أرض تجاورُ منزلى . وما أصبح الصباح حتى رأيتُ قصراً ما وقعت العين على مثله ، وكأنّ الشياطين قد صنعته . فسألتُ عن ذلك فقيل لى :

إن جودر أتى ، وبنى هذا القصر ، وعنده مماليكُ وعبيدٌ ، ومالٌ كثير ، وقد خلّصَ أخويْه من السّجن ، وهو فى قصره كأنّه ملك الزّمان ، وأمير العصْر والأوان .

قال الملك : اذهبوا إلى السّجن ، لتتحقّقوا من أنّ سالماً وسليماً خرجا منه ، أو هُما ما يزالان فيه .

فذهبوا إليه ، وبحثُوا عن سالم وسليم ، فلم يجدوهما فيه ، فرجعوا وأخبروا الملك أنهما غادرا السّجن ، وليْسا فيه .

فقال الملكُ وقد ازدادَ غضبه شدة : ظهر غريمى ، فالذى خلّص سليماً وسالماً من السجن هو الذى أخذَ مالى ، وسرقَ خزانتى .

فقال الوزير : يا سيّدى ؛ مَنْ هُو ؟

قال : أخُوهما جودر يا وزيرى ؛ فأرسلْ إليه أميراً ومعه خمسون رجُلا

يَقبضُون عليه ، وعلى أخوَيْه ، ويضَعُون الأخْتامَ على جميع أموالِه ، ويأتونني بهم جميعاً .

فقال الوزير وكان رجُلا عاقلاً : حِلْمك يا ملك الزمان . فإن الله حَليمٌ لا يُعجِّلُ بعَبده إذا عَصاه . وإنَّ الذى يكونُ قد بَنَى قصراً هذا وَصْفُه فى ليْلةٍ واحدةٍ كما قالوا لا يَصْعُبُ عليه شىء آخر . وإنى أخْشى أن يُصادِف الأمير مَشقَّة لا قِبَل لهُ بها ، فانتظِرْ حتى نَرى الحقيقة ، وسَوْف أُدبِّر لكَ تدبيراً يُنيلُك رَغْبَتَكَ .

قال الملك : وما الذى تَرى أن تفعلَهُ يا وزيرى ؟

أجاب الوزير : أَرسِلْ إليه أميراً يَدْعُوه إليكَ ، فإذا جاء فأَحسِن استقبالَه ، واستضفْه بعضَ الوقتِ ، وسوفَ أتكفَّلُ أنا به ، فأستدْرجُه فى الحديث ، وأعرفُ مقدارَ عزْمِه وقوَّتِه ، فإن كان شديداً قويًّا نَحتال عليه بمثلِ حِيله ، وإن كان ضعيفاً هيِّناً نقبِض عليه ، ونفْعلُ به ما نشاء .

فأعجبَ الملك بهذا الرأيِ وأقرَّه ، وأرسل أحدَ الأُمراء يصحَبُه خمسون رجُلا ليدْعوَ جودر لمقابلة الملك .

وكان ذلك الأميرُ أحمقَ متكبِّرًا مُتغطرِساً . فعند ما وَصَلَ إلى قَصْرِ جودر ، رأى أمام بابه خصيًّا متكِئاً على كرسىّ ، فلما اقتربَ منه لم ينْهَض ، ولم يقِف احتراماً للأمير ، فقال له الأمير : يا عبْد ؛ أين سَيدُك ؟

فأجابه بدُون اكتراثٍ وهو لا يزالُ متكِئاً على الكرسىّ : فى القَصْر .

فغَضِبَ الأميرُ وقال : يا عبدَ النحسِ والشُؤم ، أما تَسْتَحْيِي أن تُخاطِبَنى وأنت متكئ على الكرسىّ ؟!

قال : لا تكُنْ كثيرَ الكلام .

فلما سَمِعَ الأميرُ هذا الكلامَ غَضِبَ وثارَ ، وعدّ ذلك إهانةً له ، وسحَبَ عَصاً غليظة يريدُ ضربَ العبدِ ضربةً تهشم رأسه .

فنَهضَ العبدُ — وكان شيطاناً — فأخذَ مِن الأميرِ العصا ، وضربه بها عدةَ ضربَاتٍ .

— فاندفَعَ العسكرُ بسيوفِهم يريدون قتله ، لِما فعلَه بأميرِهم .

— فقال العبد : أتشهرون السيوفَ عَلَيَّ يا كلاب ؟!

— وقام عَليْهم ، فكانَ كلّ من أصابَه منه ضربة جُرِحَ وسال دمُهُ ، فانهزَمُوا أمامه ووَلوا هاربين .

— وعادَ العبدُ فجلسَ على كرسيِّه ، ولم يُبالِ أحداً .

— ولّى الأميرُ وعسكرُه منهزمين إلى الملِك . وقصّ الأميرُ عليه ما لاقاه هُو ورجالُه من العبدِ . فغضِبَ الملك ، وأمرَ بإنزالِ مائةِ رجُل إلى ذلك العبدِ للقبْضِ عليه ، وحمْله مكبَّلًا بالأغلالِ والسلاسلِ .

— فخرجوا إليه ، فما رآهُم حتى قام إليْهم ، وما زال بهم يوسِعُهم ضرباً ويُشبِعُهم لَكْماً ووَكْزاً إلى أن ولّوا مدبرين مذعورين .

فأمرَ الملك بإرسالِ مائتين ، فكان نصيبُهم كنصيبِ المائة .

فبلغ الغضَبُ من الملك مَبْلغاً عظيماً ، وأمر الوزيرَ أن ينزلَ فى خمسمائة

رجل مُدجّجين بالسلاح ، ويأتيَه بذلك العبدِ وبجودر وأَخوَيْه .

فقال الوزير : يا ملك الزمان ؛ أنا لا أحتاجُ لعسكر ، وسأذهب إليه وَحدى ، دون سِلاح .

قال الملك : افعل ما بدا لك ، والذى يهمّنى الآن أن يَحضرَ إلىّ جودر وأخواه وعَبْدُه ، بأىّ وسيلةٍ من الوسائل ، وعلى أىّ صورةٍ من الصُّوَر.

فألقى الوزير سِلاحَه ، ولبس حُلةً بيضاء ، وأخذ مِسْبحةً فى يدِه ، وتوجَّه وحدَه إلى قصر جودر . فرأى العبدَ جالِساً ، فأقبلَ عليْه وقال :

— السلامُ عليْكم

قال العبد : وعليكم السلام يا إنْس ، ما حاجتُك ؟ .

فارتَعد الوزيرُ من الخوفِ إذ عرف أن مخاطِبَه جنّى من قوله له يا إنْس ، ولكنه ملك نفسَه ، وضبَط شعورَه وقال :

— أسيدُكَ جودر هنا ؟

قال العبد : نَعم ؛ إنه فى القَصر .

قال: اذهبْ إليه وأخبِرْه أن الملك يَدعُوه إلى ضِيافتِه .

قال العبد : انتظِرْ حتى أُخبِرَه .

وصَمد إلى جودر ، وقال له : يا سيدى : لقد أَرسلَ إليك الملكُ أميرًا يصحَبُه خمسون رجُلا ، فضربتَهم ؛ فأرسل مائة ، ثم مائتيْن ، فهزمتهم . فأرسل الوزيرَ من غيرِ سلاح يدعوك لضيافته ، فماذا ترى ؟

قال : ائذَنْ للوزير بالدُّخول علَيْنا .

قال : سَمْعاً وطاعة .

ونزلَ إلى الوزير ، ودعاه لمقابلةِ جودر .

فاما مثل الوزير بين يديْهِ هالَه ما رآه فيه من عظَمةٍ ، وما أحاطَ به من الرّوعةِ والأُبّهة والجلال ، فهو يَراه بحالةٍ ليس الملكُ عليها ، أو قريباً منها ، ووجد الوزيرُ نفسَه بين يدَيْه وكأنه رجلٌ بائسٌ فقير .

فقال له جودر بعد السلام : ما شأنُك أيها الوزير ؟

أجاب الوزير : اعْلم يا سيدى أن الملكَ يُكنُّ لكَ حبًّا عظيماً ، وهو يقرئُك السلام ، ويوَدّ رؤيتَك ، وقد أرسلَنى إليك لأُبلغَك رغبتَه فى حُلولك ضَيْفاً عليه اليوم .

قال جودر : إذا كان الملك يكِنُّ لى كلّ هذه المحبة — فلا ضَيْرَ من أن يحضُر هو عندى .

قال الوزير : لا بأس ، سأُبلِّغهُ رغْبتك هذه .

فخلع جودر على الوزير حُلّةً ما ارتدَى هو ولا ملكُه مثلها قطّ ، فلبسها وخرجَ قاصِداً الملك .

وأخبر الوزيرُ الملكَ ما لاقاه من جودر ، وما قالَه له .

فأَمر الملك جنودَه بالاستْعداد للذّهاب معه إلى جودر .

ولم يمضِ قليلٌ حتى كان فى طريقِه إليه يحف به عسْكرُه .

وكان جودر فى انتظارِه ، وقد صفّ له فى ساحةِ منزله أعوانًا من أعْوان خادمِ الخاتم ، على هيئةِ جنودٍ وخَدمٍ وحشَمٍ ؛ ليُلقوا الرعْبَ

والهيبَةَ فى قلبِ الملك ورجالِه بمنظرِ غِلْظتهم وشدتِهم .

فلما وصل الملكُ ورأى هؤلاء الُجنود وقع بقلبِه ما أرادَه له جودر . وزاد ذلك الشعور ما شاهدَه من العظمةِ البالغةِ ، وما لمسَه مما يدلُّ على الغنى الفاحش فى جميع أرجاء القصر . أما مَجلسُ جودر فكان مَجلساً لم يجلس الملك فى مِثْله قط .

قال جودر للملِك : يا ملكَ الزمان ؛ ليس مِثلُك من يَظلْم الناسَ ويغتصِبُ أموالهم .

قال الملك : لقد نفَذَ القضاء ، ولولا الذنْبُ ما كانت المغفِرة .

وأخذ يستَسمِح جودر ويستغفِرهُ مِمَّا صدر منه ضد إخْوته . فغفر له جودر وأمَّنَه ، لما رآه من تواضُعِه ، وأمر بالمائدةِ فمُدَّت ، وتناولَ الجميعُ طعاماً ما ذاقُوا فى حياتهم ألذّ منه ، كما أمر بكسوة لجميع حاشيةِ الملك من الكساوى الفاخرة .

ومرت الأيامُ والملكُ لا يَنِى عن الذهاب إلى جودر ، والتردُّدِ عليه فى قَصره ، حتى توطَّدتْ بينهما أواصِر الصداقةِ .

ثم زاد فصار يعقِد مجالسَه التى ينظُر فيها فى شئونِ رعيته فى قصر جودر ، ولكنه رغْم ذلك كان لا يزالُ يشعر بالخوفِ والرهْبةِ منه .

فقال يوماً لوزيرِه : يا وزيرى ؛ أنا أخْشَى أن يَقتُلنِى جودر ، ويأخُذَ الُملْك منى .

فقال الوزير : يا ملِك الزمان ؛ إننى أستبْعدُ فكرةَ أخذه الملك ،

فإن ما هو عليه لأَحْسن كثيراً من حالةِ ملك . ولكن إذا كنتَ تتوجَّسُ شرًّا فعندكَ ابنةٌ جميلة زوجها له فتأمن جانبَه .

قال الملك : نِعْمَ هذا الرأى ، ولن أجِد لابنتى أصلحَ من جودر زوْجاً . ولكن كيْفَ نعرضها عليه ؟ .

الوزير : أضِفه عندك ، واجْعل مجلسَه فى قاعةٍ مُشرفَة على البُستان ، وحينئذ يمكنه أن يراها فيه . فإذا ما لَمحتُ أنا إعجابَه بها ، أخبرته أنها ابنتُك ، ولا أزال أحاوِره فى الحديثِ حتى يعترِف لى بأنه أحبّها ، ويَطْلب خِطبتَها ، وهو لا يعلَمُ إلا أنَّ كلَّ شىء قد جاء عَفْواً .

قال الملك : نِعْمَ هذا الرأىُ يا وزيرى . ما فتِئْتَ مُرشدِى ومُنقِذى .

وأُقِيمتْ وليمةٌ كبيرة بقَصْر الملك لجودر حضرها رجالُ الدولةِ وبالغَ الملكُ ورجالهُ فى إعدادها ، فحوتْ كل ما قَدروا عليه من صُنوف وألوان ، ولكنْ مهما بالغوا فلن تكون قريبةً من ولائم الُخرج ؛ ومع ذلك فإن جودر جاملَ صديقه الملك ، وجلس إلى المائِدَة وتناول منها بشهيةٍ ما أشْبَعه ، وبعد أن انتهى الطعام جلس الوزيرُ وجودر فى القاعَةِ المعدةِ المشرِفة على البُستان . وبعد لحظَةٍ مرّت أمام نافذَةِ القاعَة غادةٌ جميلةٌ فاتِنةٌ ، غرّاء فَرْعاء . وكان الملكُ قد أوصْى امرأته بتزيين ابنتها أحسن زينة ، فما رآها جودر حتى شهق ، وخفق قلبه ، وشرد لبُّه ، وحارت عيناه ، فمال عليه الوزير فى سر من الحاضِرين وقال له : ما بك يا سيدى ؟ !

قال جودر وهو يشير إشارةً خفيةً إلى ابنةِ الملك : مَنْ هذِه ؟

أجابَ الوزير : هى ابنَةُ حبيبكَ وصفيِّك وخَليلِك .

قال جودر : مَنْ ؟

أجاب الوزير : الملِك .

فقال جودر وهو يُتابعها بنظراته : ما أجملها !

فمال إليهِ الوزير ، وأسَرّ قائلا : إن كانَتْ قد أعجبَتْك ، فأنا أسعى لك عِنْد الملك ليزوِّجَك إياها .

قال جودر : أُقسم لك لو نجح مسعاكَ ، لأُعطينَّكَ كل ما تَطْلب ، كما أُعطى الملك ما يَطلُبه فى مَهْرها .

فقال الوزير : سأُخاطِبه فى ذلك من فَوْرِى ، ولا بد من تحقِيق غِبْتِك؛ ثم أسرعَ إلى الملك فزفَّ له البُشرى .

وزفّت السيدة آسية ابنةُ الملك إلى جودر ، وسط الابتهاجِ والسرور ، الذى عَمّ البلاد جميعَها ، وأُقيمت حفلاتٌ بهيجَةٌ أَمّها الناسُ من جميع الطبقات . وقام بعقْدِ العقد شيخُ الإسلام . ودفع جودر مهرَ عروسِه خُرجَ الجواهر والمالِ الذى كان أعطاهُ إياه الكاهِن عبد الصمد ، والذى كان الملك اغتصبَه من أخويه .

(٦)

ولم يَطل الحالُ بعد ذلك بالملك فقد دنا أجلُه ، وتوفاه الله بعدَ زفاف ابنتِه على جودر بوقْتٍ قصير .

فنادى الجنود بجودر ملكاً عليهم ، ولكنه رفض ، فأخذوا هم ورجال الدولة يلِحّونَ ويلحِفُونَ حتى استَجاب لهم.

وكان أول عمل أمَر به ، هو بِناء جامعٍ على قَبْرِ الملك سلفه ، وأجْرى عليه الأوقافَ الخيريةَ الكثيرة .

وجعل أخَويْه وزيرين : سالم وزير مَيمَنته ، وسليم وزير ميسرَته .

ولكن الحقد الذى يأكل صدر سالم وسليم لم يكُنْ ليقعدهما عن جودر ، وما كانت الغيرةُ التى تنهشُ صدريْهما لتصرفَهما عنه ، بعد كَثْرةِ ما آذَوْه ، وكثرة ما عفا عنْهم .

فما انصرَم عام على توليةِ جودر حتى كان الضِّغْنُ قد بلغ منهما أقصى مَداه .

فقال سالم لسليم :

— إلى متى يا أخى ونحنُ تابعانِ لجودر ؟! إننا لا نَبلغُ سِيادة ، ولا ننال سَعادة ، ما دام جودر حيًّا .

قال سليم : وماذا نصنَعُ حتى نقْتُله ، ونَستولى على الخاتَم والخُرج ؟

قال سالم : تُدبر لنا حيلة .

قال سليم : إنكَ أدرى منّى بذلك ، فدبِّر لنا ما تراه .

قال سالم : إذا دبّرتُ حيلةً لقتله ، هل ترضَى أن أكون أنا سُلطانا ، وأنت وزير ميمنَة ، ويكون الخاتم لِى ، والخُرج لَك ؟

قال سليم : قَبِلت .

وذهبا إلى أخيهما جودر ، فقال له سالم : يا أخى ؛ إنّا نودُّ أن تكرِمنا بتشريفك منازلَنا ، وقبولِ ضيافتِنا .

فقال جودر : لا بأس بذلك ، فعند مَنْ تكون ضيافةُ اليوم .

قال سالم : عندِى أنا ، وبعد ذلك تكون ضيافةُ أخى .

فقبل جودر ، وتوجّه إلى منزلِ سالم ، وجلَس إلى طعامِه ، وكان مسموماً ، فما استقرّتْ أولُ لُقمة منه فى جَوْفه حتى وقع على الأرض فى غَيبوبة عميقة ، وظَنّ سالمٌ أنه لقِيَ حتفَه ، فأَسْرع إليه ، ونزعَ الخاتمَ مِنْ إصبعه ، ودعكَهُ ، فحضَرَ خادمه قائلا : لبيْكَ ، يا سيدى لبّيْك ، فأمره أن يقتلَ أخاه سالماً ، ثم يُلقى به وبأخيه جودر فى العراء ، ففعَل ا أمرَهُ به .

وذاع هذا الأمر بين الرجال فجزعوا لرؤية ملكهم وأخيه مقتولين ، وخادم الخاتم يحملهما ويلقيهما فى العراء .

فقالوا لخادم الخاتم : من فعل بالملِك ووزيرِه هذا ؟

قال الخادم : أخوهما سالم .

أما سالم فإنه أقبل عليهم ، وقال لهم : أيها الجنـد ، اعلَمُوا أنى قد ملكْتُ الخاتَمَ من أخى جودر ، وهـذا الماردُ هو خادِم الخاتَم ، وقد أمرتُه بقتْلِ أخى سليم حتى لا يُنازعَنى المُلْك ، لأنه خائنٌ ، وهذا جودر قد قتلته بالسم . وسأكون أنا عليكم سلطاناً ، فإما أن تقبَلوا ، وإما أن آمر الخادم فينتزعَ أرواحَكمْ واحداً بعد آخر .

فلم يَجدُوا بداً من الرضاء به ملِكاً عليهم ، والمناداة له بذلك .

وبعد أن انقضت مراسيم المُبايعة ، وتم تنْصيبُ سالم ملكاً ، أراد عَقْد زواجه على زوجةِ أخيه جودر ، فقال له وزراؤه :

انتظر حتى تنقَضِى عدتُها الشرعية .

قال : لا أنتَظِر ، ولا بُدّ من زواجى منها اليوم .

وبلغ الخبرُ السيدةَ آسيةَ ، وما انتَواه سالِمٌ إزاءها ، بعد أن قتلَ زَوجها .

فقالت : لا بأسَ بذلك ، دعُوه يفعل ما يشاء ، وأنا راغبةٌ فى الزواجِ منه .

فأبلغوا سالما مُوافقةَ زوجة أخيه على زواجِه منها . ففَرِحَ ، وذهبَ إليها وهو مزهُوٌّ بنفسه ، يَختالُ فخراً وطرباً وما دَرى أنها إنما طلَبَتْه لتَنتقِم منه أشدّ انتقامٍ لقتله زوجها وحبيبها جودر .

وقابلتْه مرحِّبة ، وقد بَدتْ فى أبهى زينتِها ، وجلست معه تلاطِفُه وتمازِحُه فظَنّ أنها قد أُغرمت به وأحبّتْه ، فاطمأنّ إليها ومالَ عليها ، فقدمت إليه كأساً من الشراب مزجَتْه بسُمٍّ ناقع . فما شرِبَه حتى زهقت روحُه ومات ، وذهب إلى جهنّم وبئسَ القرار .

فانتزعت آسية الخاتَم من إصبَعه ودعكتْه ، فحضر خادِمه قائلا : لبيك يا سيدتى لبيك ، فأمرته أن يُحْضِر جودر من مكانه الذى ألقاه فيه ، وكانت عِنايةُ الله به ، جزاء بره بأمّه ، وعطفه على أخويْه الآثمَيْن ، قد

حفظته ؛ فابتدرته بغيبوبة قبل أن يتناول من السم — وهو يأكل — القدْرَ الذى يميته ، فذهب الخْادم إليه فوجده حيا ، فجاء به مسرعاً إليها ، ففرحت بلقائِه ، وأعلنت للجنود والناسِ حضورَه ، فكادوا يطيرون فرحا ، وشكرُوا لله تعالى عَدْلَه فى خَلْقِه ، فحفظ الصالحين البررة ، وأهلك الخائنين الأثمة . وعاش جودر وزوجه ، فى هناءة ومسرة حتى وافاهما أجلهما .



بنات بغداد

(١)

كان فى مدينةِ بغداد حمّالٌ عمِى حظهُ ، وتحاملَ عليه فقرُه ، فساءتْ حاله ، وسُدت فى وجهه سبُل عيْشِه ؛ وقفَ ذات يوم متكئاً على قفصِه ، مرتقِباً أحداً يستخدِمه ، وإذا بامرأةٍ نَصَف ، يلفها إزارٌ موْصلى ، من الحرير المطرزِ بالذهب ، قد أقبلتْ عليه قائلةً :

هات قفصك واتبعنى ، فكان أسرع إلى الاستجابة من برقٍ خاطِفٍ ، وجملتْ تجوسُ به خِلالَ سوقِ المدينة ، تبتاعُ ما تحتاجُه ، وتضمُّهُ فى قفصِه ، فاشترتْ زيتوناً وخُبزاً ، وفاكهةً ولحماً . وعِطراً وحلوى ؛ وأمرتْه أن يتبعَها بما ابتاعتْ إلى حيثُ تَسِير .

فحمل قفصَه ، ومشى فى أعقابها ، حتى كانا أمامَ دارٍ شامخةِ البِناء ، تنيفُ فى الجِواء ، فخامةً وهيبةً ، ونضارةً وعزةً ؛ محتجبة بعزْلتِها ، وانقطاعِ

الصلةِ بينها وبين ما يجاورُها ، وطرقت بابَها طرقة هيِّنة ، فانفرج عن فتاةٍ كاعبٍ ، وضاءةِ الجبين ، موردةِ الوجنتَيْن ، ذات كشْحٍ يشكو الضُّمور ، وفمٍ يبسِمُ عن درٍّ مسطُور ، وعينيْن تبعَثُ مَنْ فى القُبور ؛ فأذِنتْ لهما بالدّخولِ ، ثم أَقفلَت البابَ من خلفهما ، ومشَوْا فى دِهليز أرضُه من رائقِ الرخام ، حتى انتهَوْا إلى قاعةٍ فسيحَةٍ ، بهـا أرائكُ مصفوفَة ، وزرابىّ مبثوثةٌ ، وسُدولٌ من الحرير مرخِيَّة ، وثرياتٌ يكادُ بريقُها يضىء ، ولو لم تُخرِجْ شموعُها ألسنةَ سناها ، وسريرٌ من العاجِ المطعَّم بالذهب ، أسْبلتْ عليه كِلّةٌ حريريةٌ وردية ، تنِم رقتُها عما بداخلها ، وعليه فتاةٌ ناهدٌ ؛ ذات خَصْرٍ نحيلٍ ، وطَرْفٍ ناعسٍ كحيل ، وشعرٍ مرسل كأنّهُ أسلاكُ الذهب ، ووجهٍ يتألّقُ وضاءةً ، ويشع فتنةً ، فغادرتْ سريرَها إليهما وقالت :

هيّا بنا نحطُّ عن الحمّال القفصَ الذى يحمِلُه ، ثم نقدتْه دينارَيْن أجرتَه؛ وقلْن له :

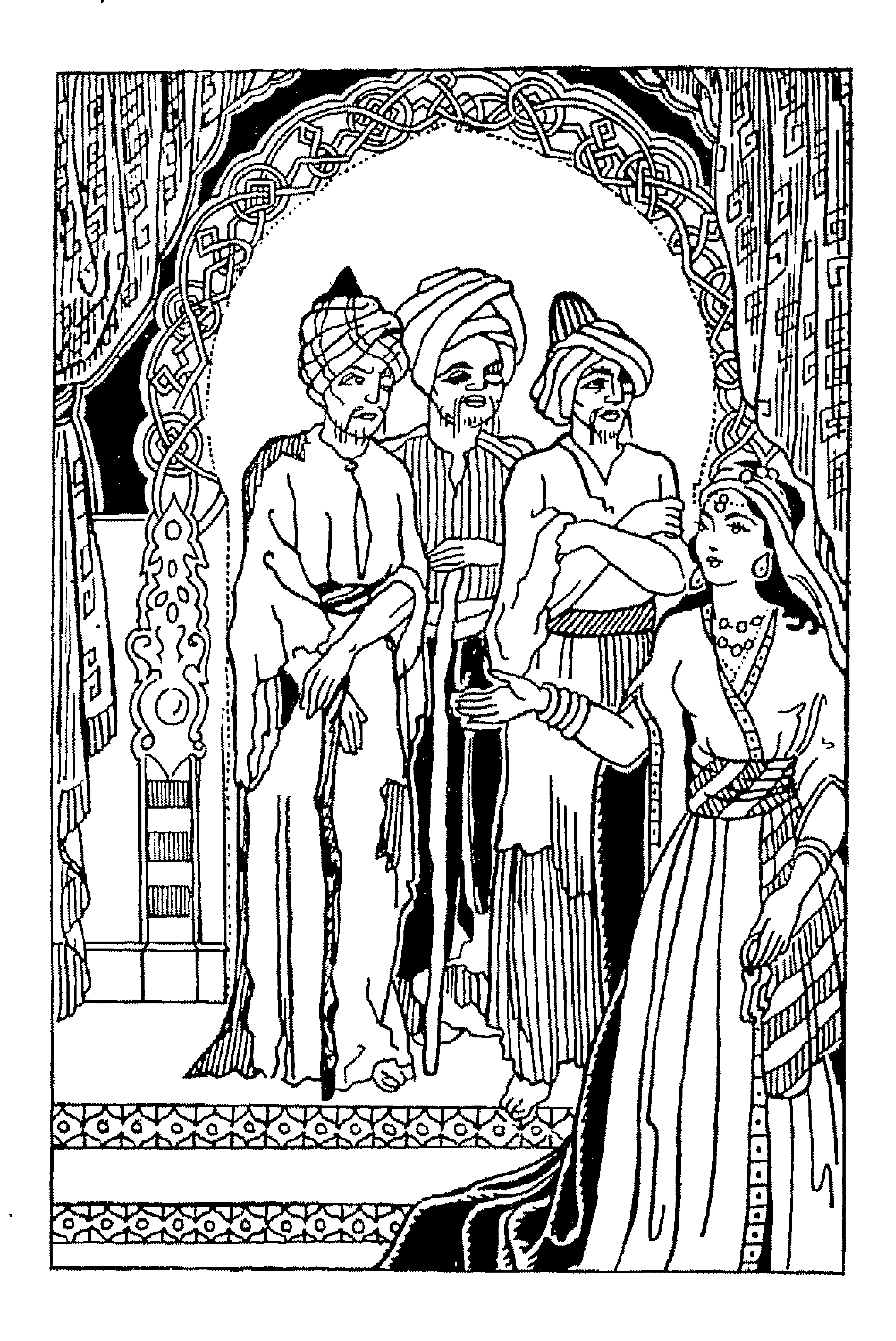
تصحَبُك السلامةُ .

ولـكنهُ تلـكَّأَ واستمرّ واقفاً فى دهشةٍ ممـا رأى ، فحسبْنه يبْتغى من الأجرِ أكثرَ مما أخَذ .

فقالت إحداهُن : ما للحمّال لا يَرِيمُ مكانَه ؟ !

فقالت الأُخرى : لعلّهُ يطمَعُ فى أكثرَ من الدينارَيْن !

فقال الحمالُ : لقد أخذتُ من أجرى فوقَ ما أستحقّ ، ولـكنى رجلٌ



لا يعولُ إلا نفسَه ، وقد قلّ رِزقى ، وضاقتْ سبُلُه فى وجهى ، حتى كادَ لا ينفذُ إلىَّ إلا مِنْ سَمِّ الخياطِ ،وقد طمِعْتُ فى البقاء معكنّ ، أخدُمُكُنّ وأقومُ بشئونكُنّ ، لقـــاءَ لقمةٍ سائغةٍ ، وشربةٍ هنيئةٍ ، ونومةٍ هادئةٍ مريحةٍ .

فقالتْ إحداهُنّ : إنّ لنا فى قصرِنا هذا أسراراً لا نُحِبُّ أن يطّلِعَ عليها أحدٌ .

فقالَ : إن مِنْ صالِحى الأعْوانِ مَنْ يكْتُم السِّرّ ، ويجعلُه فى حِصنٍ حصينٍ من نفسهِ ، وعَهْدِى لكُنّ ألّا أُفشِىَ سِرًّا ، ولا أقْفُو ما ليسَ لى به عِلْمٌ ، وأن أتركَ ما لا يعنينى .

فقالتْ : إذا كانَ الأمرُ كما قلتَ فاجلسْ وعسى أن نجدَ فيكَ عَوْنًا ونَفْعًا .

وقُمْنَ فأعدَدْنَ مائدةً ، جمعتْ من ألوان الطعام والشرابِ ، ما تشتَهيه الأنفسُ ، وتلذُّ الأعين ؛ ثم جلسوا جميعاً حولها ، وأخذوا يتناولون الطعام .

وبينما هم يأ كلون إذا بالبابِ ينقُل إليهم طرقًا خفيفًا ، فخفَّت إحداهُن إليه ، فوجدتْ به ثلاثةَ رجالٍ ، فتركتْهم وعادتْ إلى أُختيْها مسرعةً ، وقالت :

إن ليلتنا هذه لسعيدةٌ ؛ فقد أُلْفَيتُ بالباب ثلاثةً من الأعجامِ ، ذقُونُهم محلّقةٌ ، وعيونُهُم اليسرَى تالفةٌ ، ويَبدُو لى أنّ بلادهُم سحيقةٌ ، أنكروا المقامَ فيها ، فضربوا فى الأرضِ ، يبتغون الفضلَ والرزقَ ؛ فلو سمحْنا لهم

بالجلوسِ معنا ، يستنشُونَ نسيمَ الراحةِ ، ويمحُون مرارةَ الأفواهِ بما يَطعَمون — كان ذلك منّا خيراً ، وربما وجدْنا فيما يوحُون إلينا مَسْلاةً وفرحةً ؛ فأجبْنَها : لا بأسَ من ذلك ، ائْذَنى لهم أن يدخُلوا ، ليُسْكِتوا أطيطَ أمعائِهم بما يأكُلون ويشربون ، وليكُنْ بعد ذلك ما يكون .

دخلَ الثلاثةُ العورُ الدارَ ، وما كاد يستقِر بهم المجلسُ حتى قالوا :

علَيْنا بدفٍ وعودٍ لنُسمِعكُنّ شيئاً من الأغانى الشعبية ، بالقدرِ الذى نعرفُه ، فعسَى أن تجدْنَ فيها من المُتعةِ واللذةِ ، ما فيهِ بعضُ الوفاء لهذا اللقاء الحميدِ ، والكرمِ المجيدِ ، فقُلنَ : ونحبُّ أن نستمع لهذا النوع من الأغانى ، ففيه إلى الاستمتاعِ به ، علمٌ وخبْرةٌ وتبصرةٌ وعِبرةٌ .

ودَوَّتْ فى أرجاء القصر أصواتُ الغناء ، على إيقاعٍ من رَنّات العود ، وصَكِّ الدفوفِ ؛ فطرِبَت المشاعرُ ، وترنَّحت الأعطافُ ، وغَرِقوا جميعُهم فى سكْرةٍ من المرَحِ واللَّذةِ .

وفى غَمرةٍ من هذا الفرحِ والسرورِ مَرَّ الخليفةُ ووزيرُه وسيّافُه بهذا القصر ، وكانوا قد خرجوا يتفقّدونَ أحوالَ الرعيةِ ، ويَمشُونَ فى شوارعِ المدينةِ ؛ فبهرَهُم مَنظرُ القصر : أضواءٌ منبعثةٌ من نوافذِه ، منتشرةٌ هنا وهنالك ، ورنّاتُ المعازفِ تَقطعُ سكونَ الليلِ فى اتّساقٍ وانسجام ، وأصواتُ الغناءِ العذْبَة تهزُّ القلوبَ هزّاً عنيفاً .

أنصتَ الخليفة ورجاله فرأَوْا ما أعجبَهُم ، وسمِعوا ما أطربَهم ، ودفعَهُم شعورٌ خفىٌّ إلى معرفَةِ سِرِّ هذا القصر ؛ فاتجه مَسرورٌ نحو البابِ بأمر

سيِّدِه ، وطرقهُ ، فاستجابَتْ إحداهُن اطرْقِه ، وفتَحَتْه ، فوجدتْ ثلاثةَ رجالٍ في هيئةِ تُجارٍ ، وكان الخليفة ووزيره وسيافهُ متنكرين ، خرجوا يطوفون بالبَلد فجذبتهم أصواتُ الغناء .

فقالت : ما خطبكُم أيها الرجالُ ؟ !

فقال الوزيرُ : نحنُ تجارٌ من طبَرية ، وجئْنا بغدادَ ببضاعةٍ ، ونزلْنا في خانِ التجارِ منذُ ثلاثة أيام ، واستضافَنا الليلةَ أحدُ تجار المدينـةِ ، وضاعَ أولُ الليل في السمرِ عنده ، فتُهنا عن منزلِنا ومثْوانا ، وقد عَظُمَ رجاؤُنا في هـذه الدار أن تُؤْوِينَا حتى الصباح ، فطرقْنا بابها من أجل ذلك .

وبعد أنْ رضيتْ صاحبتاها قالت : على الرّحب والسعةِ .

واستقبلتْهم البنتان استقبالاً حميداً يليقُ بوقارهم وهيبتهم ، وقالتا : ونرجو ألا تسألوا عن شيء لا يَعنيكم ، حتى تخرُجوا بسلامٍ آمنين .

ثم دَخلوا في نظام الجلسةِ قاعدين ، وأخذوا يرتشفون شراب القهوةِ ، والخليفةُ في دهشةٍ مما يَرى من أنماطٍ مختلفةٍ : فهؤلاء ثلاثةٌ عَوِرَتْ أعينُهم اليسْرَى ؛ ومعهم رجلٌ زرِيّ الثيابِ ، رقيقُ الحال ؛ وهؤلاء بناتٌ ثلاثٌ غارقاتٌ في التَرفِ والنعيم ، ينِمُّ جمالُهن ومظهرُهُن عن غِنًى وسموّ في المنزلةِ لا يفهمُ معهُما اختلاطَهُنّ بتلك الطبقة الدنْيا من الناسِ ، في جلسةٍ كلُّها لهْوٌ وغناءٌ ومرحٌ ، وكُلما هَمّ أن يسألَ عن هؤلاء أشارَ الوزير أن يعتصِمَ بالصبر حتى لا يُصيبَهم أذًى .

ثم قامت إحداهن داعيةً أختيها إلى القيام بما يَقُمْنَ به كلَّ ليلةٍ ، وأحضرتا لها كلبتين سوداوين ، وشمرتْ هي عن ساعِدِها ، وأشبعتْهما ضرباً بالسوطِ ، إحداهما بعد الأُخرى ، ثم ضمتْهما إلى صدرِها ، وقبلتْ رأسَيْهما ، وسلمتهما إلى أختيها فأودعتاهما مكانَهما .

جلست الفتاةُ الضاربةُ على سريرِها العاجيِّ ، وجلست الثانيةُ على على سريرٍ آخر بجانبِها ، وأحضَرت الثالثـــة عوداً ، فحركت آذانَه ، وأصلحتْ أوتارَه ، وأنشدتْ على إيقاعِه شعراً جميلا ، تُناشدُ فيه النوم الذى طار عن عينها أن يَرتدَّ إليها ، وتَبْحثُ عن قلبها ، وتَتحسَّسُ مكانَه فلا تجدُه ، فتسأل عنه : أين ذهب ؟ ! وإلى من ذَهبَ ؟ !

فلما انتهتْ من إنشادِها قالت الفتاةُ الثانيةُ : رطّبَ الله لسانَكِ ، ثم شقّتْ ثيابَها ، وخرّتْ على الأرض مغشيًّا عليها ، فرأى الخليفةُ ومن معَهُ آثارَ ضرب بالسّوطِ فى جسمِها فاقشعرّتْ أجسامُهم ، وشملهم غمٌّ وعجب عظيمان .

ثم قامَتِ الثانيةُ وأمسكتِ العودَ ، وأنشدتْ مثلَ هذا ، ثم شَقتْ ثيابَها ، فظهرت آثارُ الضرب فى جسمِها ؛ ثم فَعلت الثالثةُ مثل الذى فعلتْهُ الأولى والثانيةُ .

فالتفتَ الخليفةُ إلى الحمالِ وصحْبِه ، وسألهم عن ذلك ، فقالُوا : ما المسئول عنْهُ بأعلمَ من السائلِ !

فقال : ألستُم أصحابَ هذه الدارِ ؟ !

فقالوا ليتَنا بتْنا فى العَراء ، ولم تَطأْ لنا قدمٌ هذه الدارَ !

فالتفتَتْ إليهم الفتاة الضاربة وهى صاحبةُ الدار قائلةً : فيم تتحدثون ؟!

فقال الحمالُ نحنُ فى حَيرةٍ مما رَأينا ، فهل لكِ أن تكشِفِى لنا الغطاء عن سرِّه ؟ !

فقالت : لقد آذَيْتُمونا ، ونقضْتُم ميثاقكُم معنا ؛ ثم ضربت الأرضَ برجلِها ثلاثَ ضَرباتٍ قائلةً : أسرِعُوا ، فانشقَّت الأرضُ عن سبْعةِ عبيدٍ بيدهم سُيوفٌ مسلولةٌ ، وصاحُوا معاً : ائذنى لنا أن نقتُلَ هؤلاء الثَّرثارين الذين يسألون عما لا يَعنِيهم .

فقالت : بعد أنْ أعرفَهم ، وأقِفَ على حالِهم .

فقال الحمالُ : ما جرَّ علينا البلاءَ والنحسَ إلا هؤلاء العورُ الذين إذا دَخلوا قريةً أفسدُوها ، وجعلوا عالِيها سافلَها .

فضحِكَت الفتاةُ وقالت : عرَّفُونا بكم ، فلم يَبقَ إلا قليلٌ من عمرِكم ، ثم التفتت إلى العورِ الثلاثة قائلةً : هل أنتُمْ إخوةٌ ؟ فقالوا : لا ، ولكل منّا قصةٌ غريبةٌ ؛ فقالت : أحِبّ أن أعفُوَ عنكم ، بعد أن يَقُصّ كلٌّ منكم قصتَه .

فتقدمَ الحمالُ ، وقال : قصتى فى كلمة : حملتُ لكنَّ البضاعةَ ، ونُكِبْتُ بهؤلاء العورِ الثلاثة ، فلت بى الحسرةُ والندامَة .

فقالت امْسَح على رأسِك ، واذهَبْ إلى سَبيلك ؛ فقال : لنْ أبرَحَ مكانى حتى أستَمِع لقصةِ حُلفاء النحسِ والتعاسَة .

(٢)

فتقدم الأعورُ الأول وقال : كان أبى ملكا نافذَ السلطانِ ، كثيرَ الجندِ والأعوانِ ، وكان له أخٌ أوتى من المُلْكِ والحكْمِ فى بلادٍ أخرى مثلَ ما أُوتىَ والدِى ولم يَبْغِ ملكُهما على أُخوّتهما ، فكانا على صفاءٍ ووُدّ وإخاءٍ ؛ ومنحهما القَدَرُ نفحةً من رضاه وخيْرِه ، وسوَّى بينهما فيما يسبِغُ من نِعَمه ، فجعل ولادَتى وولادةَ ابنِ عمِّى فى ليلةٍ واحدة ، فتفيَّأتُ أنا وابنُ عمى ظلالاً ساجيةً من محبةِ الأبوَيْن، وفرح الأخوَيْن، وكان عمِّى يُحبّ أن يرانى عندَه كثيرًا ، فكنتُ أختلفُ إليهِ حيناً بعد حين ، فقوّى ذلك ما بَينى وبينَ ابن عمى من وَشيجَةٍ ، وأَنِسَ كلٌّ منا إلى أخيه ، فكان مأمنَ سرِّه ، ومَوْضع مَشُورتِه .

وذاتَ مرة رغبَ ابنُ عمى وأنا عندَه . أن أصحبَه فى أمرٍ يهُمه ، باذلاً عونى له ، على أن يكون فى مَأمنِ السِّرِّ من قلْبى . فرضيتُ له ما أراد ، فأَعطيتُه ما شاء من مَواثيقَ وعُهود ، وتبِعتُه إلى قصرٍ مشرقٍ بالجلال والعظمةِ ، فأشار إلى فتاة كانت تُطِلّ من نافذتِه ، وكأنها منه على ميعادٍ ، فما لبثْنا قليلًا حتى كانت معنا جسماً من نورٍ ، فى ثوبٍ من حريرٍ ، ثم سار ابنُ عمى بنا إلى مقْبرةِ المدينةِ ، وكانت منها على مكانٍ سحيقٍ ، وهناك دَخلَ بنا قَبرًا فسيحاً ، وحَفر فى ناحية منه ، فبانَ له غطاءٌ خشَبىّ فرفَعه ، ثم انزلَق بنا على سُلَّم منتصِبٍ فى بَهْو واسع الأرْجاء ، به حجْرتان

ممدودَتان ؛ أما إحداهُما ففيها ما يحتاجُ إليه كلُّ حيٍّ من زاد وماء ، وأما الأخرى ففيها سريرٌ عاجيُّ القوائم ، وعليْه فراشُه الفَخْم ، وكرسيّان فاخِران ، ومنضَدةٌ صغيرةُ الحجم غاليةُ القيمةِ .

ثم جلَسَت الفتاةُ على السَّرير طوْعاً لإشارتِه . وجلَسْتُ على كرسيٍّ بجانِبه ممتثلًا أمرَه ، ثم قال : أنتَ تَذهب إلى شأنك ، على أن تُعيدَ الغطاءَ الخشبيّ وتحثُو عليه التراب كما كان ، وعلى ألاّ تَدُلّ علينا أحداً ؛ فودّعتُه ، ورجَعتُ منفِّذاً أمرَه ، وفيًّا بموثِقِه ، ولما أَوَيْتُ إلى مَضْجَعى جعلَ النومُ يبحثُ عنى فلا يجِدُنى ، لأنى شاردُ اللُّبِّ، قلقٌ على ابنِ عمى .

وما كادَتْ شمسُ الصباحِ تَنْشرُ نورَها ، حتى أسرعْتُ إلى المقْبرة ، وهُناك أعيانى البحثُ عن القبرِ الذى من تحتِه ابنُ العمِّ وفتاتُه فما أَجْدانى ، ولبثتُ على هذا الإعياء والفشلِ كلّ يومٍ ، حتى أَدبرَ أسبوعٌ وأسبوعٌ ، وعمِّى يرتقبُ عودةَ ابنه من سَفرتِه التى استأْذَنَه فيها ، وحدّد لها عشرينَ يوماً ، ثم استأْذَنْتُه فى العَوْدَة إلى أبى فأذِن لى ؛ وما كادتْ قدمايَ تطأُ مدينةَ والدى ، حتى قبَضَ علىّ الُجند ، وساقونى إلى أكبرِ وزرائِه ، فإذا هو على عَرشِ المُلكْ ، قابضٌ على زمامِه ، بعد ثورتِه على أبى وقتْلِه، وانتزاعِه المُلكَ من يَدِه ، وكان موتوراً منِّى ، وذلكَ أنى خرَجتُ للصَّيدِ فى صُحْبتِه أيامَ أبى ، نَرمى الطيْر والوحْشَ بالنِّبالِ ، فطاشتْ منِّى رميةٌ فنقأتْ عينَه ، ثم رَجَعنا والهمُّ يعتلجُ فى صدورنا ، أسَفاً على عينِ الوزير ، وذهاب بصره ؛ ولـكنه كظَمَ غيظه فى نفسِه ، ولم يستطعْ أن يُبدى

منى أمله ، مخافةَ أن يَصُبَّ أبى عليه جامَ غضبه .

ولما مَثلتُ بين يديه ، قال : أرأيتَ كيفَ يفرُكُ السلطانُ ، فتذهب بأبصار الناس ، وتُرَنّق عيشَهم ؟ !

فقلت : لم يكنْ منى إلا الخطأُ الذى أنكرته .

فقال : ولكنَّ عينى أكبرُ عندى من حياةِ غِرٍّ مثلِك ؛ ومدَّ يدَه ، ففقأ عينى بأصبعه ، وأسلمنى إلى جُندىٍّ من جنوده ، وأمرَه أن يذهبَ بى إلى البَرّيةِ ، فيجعلَ لحمى طعاماً للوَحشِ والطيْر ؛ وكان هذا الجندى صنيعةَ معروفى أيامَ كان المُلكُ فى يَد أبى ، فأبتْ نفسُه الوَفيّةُ أن يقتُلَنى ؛ وهنالكَ فى البَيْداء خلَّى سبيلى على أن أهجرَ المدينةَ ، وأضربَ فى بلادِ الله ففررْتُ إلى عمِّى ، فألفيتُه فى حزنٍ شاملٍ على ابنه الذى افتقده . فلم أجد سبيلًا إلا أن قصَصت عليه مصيرَ أبى وخبر ابنه ، فأصابه غم على أخيه ، وفرحٌ من أجْل ابنِه ، ثم أخذَنى إلى المقبرة وجعلت أبحث عن القبرِ هنا وهُناك ، حتى عَثرتُ عليه بعد جهدٍ جهيدٍ .

ولما كشفْنا الغِطاءَ عن مكانِ ابنِ عمِّى ، ونزلنا فى سُلمه ، رأينا بقايا دخانٍ سابحةً فى جوّه ، ولما وقفنا أمامَ السرير وجدناهما ممدودَيْن على فراشِه المحترِق ، قد أكلَتهما النارُ فلم تبق منهما باقيةٌ ، فخلع عمى نعلَه ، وضربه بِهِ على وجهه ، وقال : لَعنَكَ اللهُ وجعلَ الجحيمَ مثواك ، فقد انتهكْتَ حرمةَ شريعتِه ، وعصيْتَ أمرى وأمرَه ، وانتزعتَ هذه الفتاةَ من أهلِها ، واجتمعتَ بها فى هذا المخبأِ على غيرِ سنّتِه ، فجازاك بهذا المصيرِ

الأليم ؛ ثم غادرنا المكانَ ، وأرجعنا غطاءه ؛ ووارَيْناه الترابَ ، وعُدنا إلى قصرِ عمى فى حُزنٍ عميم .

وبعد أسبوعٍ من ذلكَ أغارَ على مدينةِ عمى الوزيرُ الذى قَتَل أبى بخيْلِه ورجلِه ، فخشيتُ أن أقع فى يده ، ففررْتُ أمشِى على غيرِ وجهٍ فى أرضِ اللهِ الواسعةِ ، حتى كنتُ ببَغدادَ ، والتقَيْتُ بهذين الأعوَرين وقادتْنا أقدامُنا إلى هذه الدارِ . فقالت الفتاة : امسحْ على رأسِك ، واذهبْ إلى حيثُ تشاء ، فقالَ : حتى أعرِفَ قصةَ الباقين .

(٣)

وتقدم الأعورُ الثانى وقال : إنى ابنُ ملكِ جزائرِ الآبنوس ، حفظتُ القرآنَ وتعلّمتُ القراءة والكتابةَ ، وحذقتُ الأدبَ والشعر ، وبرزْت فى كثيرٍ من العلومِ ، فنبه ذكرِى وذاعَ صِيتِى ، ورغِبَ كثيرٌ من الملوكِ فى الوفادَةِ إليهم ، أعطِّرُ أنديتَهم ، بما أُوحِى إليهم به مِن مَسائِل العِلم القيِّمةِ ، والطرفِ الأدبيةِ ، والمُلَحِ التاريخيّةِ .

وكان ملكُ الهند ممن سَمِع بى ، فطلبَنى إلى أبى . فبعثَنى إليْه فى عددٍ من الحراسِ ، ومَعِى من الهدايا القيّمةِ ما يُوائِم إهداء ملكٍ لملكٍ ، وأقَلَتْنا مراكِبُ ثلاثة ، جعلَتْ تارة تخطو ثَبَجَ البحر ، كأنها حمائمُ طائرةٌ على حقولٍ من قمحٍ استحصدت . أو فراشٌ مبثوثٌ على شقائِق توردّت ،

وتارة أُخرى تتدفق فى لَهواتِه ، فلا يَجدُ لابتلاعِها مساغاً فيلفِظها على ظهره .

ولما وصلنا إلى الشاطئ ، ركبْنا خيولَنا ، وسِرْنا فى الْبَرِّية آمِّين الملكَ وقصرَه ، وبينما نحنُ سائرون إذ طلَع علينا ثُلَّةٌ من قُطَّاعِ السبُلِ ، أولُو قوةٍ وأولو بأسٍ شديدٍ ، فأعجلونا بسيُوفِهم ، وقتَلوا بعضَنا ، وتفرقَتْ بقيّتُنا أيدِى سَبا ، وساقَنى الهربُ إلى مغارةٍ ، كنتُ سِرَّها المصُون ليلةً كاملة ، ثم انفرجَت فى مشرقِ الشمسِ عن شفَتاها ، فمشيتُ على غيرِ وجهٍ ، حتى التقَمتنى مدينةٌ ، يبدُو خيرُها وغِناها ، ولا تهمُد الحركة فيها ، فدفعَنى إحساسٌ من الأُنسِ فى نفسِى إلى خائطٍ فى دكّانِه ، فحيّيْتُه بتحيةٍ كاملةٍ ، فحيانى بأحسنَ منها ، وأجلسَنى أمامَه ، وسألنى عَنْ أمرى ، فأفضَيْتُ إليهِ بجملةِ شأنى ، فنصحَ لى أنْ أكتُمَ أمرى ، وأسبل ستراً كثيفاً على عِلمِى وأدَبى ، لأنّ المدينةَ لا تعْنَى إلا بالمالِ وجمعِه ، ولا تعرفُ العلمَ وأهلَه ، ولا الأدب وحُسْنَه ، وأفهمَنى أنّ ملكَ هذه المدينةِ يُبغِض والدى ، وأنه ما أرْسلَ فى طَلبِى ، إلا لينْتقِم منه بقتلِى ، وأشارَ علىّ أن أقيمَ عندَه ، وأن أُوائم أهْلَ المدينة بمزاولةِ عملٍ أعمَاله ، وكنتُ لا أجيدُ صنعةً ولا عملاً ، فأرادَ لى أن أحتَطِبَ ، وأحضَرَ لى فأساً وحبْلا من أجْلِ ذلك ، ودأبتُ على الاحتِطاب كلّ يومٍ ، فأستمْطِره رزقِى وزادِى .

وذاتَ يومٍ دخلتُ خميلةً فى البريّةِ وضربتُ بفأسِى فى حشائِشِها ،

فاصطدمَتْ بحلقةٍ نحاسيّة ، فأزلتُ الترابَ من حولِها ، فألفيْتُها ثابتة في غطاءٍ خشَبيّ ، ولما جذبتُها ارتفع الغطاء عن سلم هابطٍ في الأرض ، فانزلقْتُ على دَرَكاتِه ، حتى كنتُ أمامَ بابٍ أسفلَه ، فولَجْتُه إلى ردْهةٍ فسيحةٍ ، تطلُّ عليها أبوابُ حُجرات عدةٍ ، وفي وسطها فتاةٌ كأنها البدرُ إذا أسفَرَ ، والغصنُ إذا استقام وأزهَرَ . جالسة في كسَلٍ رخِيٍّ ، وسُهومٍ خفِيٍّ ، تتطايرُ من حولِها الأفكارُ والأوهامُ ، تَطايُرَ البَسَماتِ فوقَ فمِ الطفلِ الحالِم .

فلما أحسّتْ قدومي ، هبتْ من جَلستِها قائلةً : إنسِيّ أنت أم جنِيّ ؟ فقلتُ : السلامُ عليكِ ؛ لم أكنْ إلا إنْساناً ، طاهرَ القلبِ مخلصاً زكيًّا ، فاطمأنّتْ وقالت : وعليكَ السلامُ ورحمةُ الله ، وكيفَ وصلتَ إلى هذا المكانِ ؟ فقد لبثْتُ فيه سبعَ سنين ، لم يكتَحِلْ طرفي بإنسانٍ ، فقال : جاء بي القدرُ ، وأرجو أن يكونَ لقائي بكِ آخرَ مأساتي ، وبدءَ نعيمي ، ثم سردَ عليها ما حلَّ به من عُقوقِ الزَّمَنِ ، حتى لفَّهما هذا المكانُ ، فقالت : لم تُحَمِّلْكَ الأيامُ من بأسائِها ما حمَّلتْني ، فاستمِع لتعلمَ أينا أسوأ حالا ، وأنكَدُ حظاً :

إنني ابنةُ ملكٍ مثلك ، اختطفَني عفريتٌ من الجنّ يُدعَى جرجريس ابن برجريس بن إبليس ليلةَ زفافي على ابن عمِّي ، وحبَسني في هذا المكانِ ، حيةً ميتةً ، لا آنسُ إلا بوحدَتي ، وهو يزُورُني كل عشرةِ أيامٍ ، ولا أدري لذلك غاية ، وقد بَقِي على زيارَته لي أربعةُ أيام ، فإن رأيتَ

أن تعيش مَعِي هذه المدة معيشَة أخوةٍ بريئةٍ ، ثم تختلِف إلىّ فى مدةِ غيبَتِه ، حتى يُقيِّضَ اللهُ لنا من هذا السِّجْن مَخرجا ، كان لكَ جزيلُ الفضلِ وسابغُ العرفِ . فثارَتْ فى نفسه نخوةُ الرجُولة قائلا : لا تَنتَظِرى منى إيناساً فحسْب ، ولكن انتظِرى تسريحك وقَتْله ، ثم التفَتَ فرأى على الجدار لوحةً ، تبدُو طلاسِمُها ، فسألها عنها ، فقالت : هذهِ لوحةٌ إن أردْت حضورَ العفريت فى أى وقتٍ مسحتُ عليها بيدى ؛ فهَمّ أن يَمَسّها بيدِه ، متعجِّلا قتله ، فحالتْ بينه وبين ما يُريد ، خشيةَ أن يحْضُر العفريتُ فيجدَه عندها فيقتُلهما ، ولكنهُ أصَرّ ولمسها بيده ، فزُلزِلَ المكانُ زلزاله ، ودبّ الرعبُ فى قَلْبِه ، فأمرته أن يُغادِرَها من فَوْرِه ، وينجو بنفْسِه ؛ وصعد فى السُّلم مُسرِعاً ، تاركاً فأسَه ، وفرّ إلى الخائِط لا يلوى على شىء ، وإن جبينه ليتفَصّد عرقاً .

وما هى إلا لمحةُ البَصر حتى كان العفريتُ معها ، فقال : لِأَمْرٍ ما أحضرتنِى الساعةَ ؟ فقالت : كنتُ سائرةً أمامَ اللوحة ، فأصابنِى دُوارٌ فى رأسى ، أَذْهبَ قوتى ، فسقطْتُ على الجدار ولمستُ اللوحةَ بيدى ، ولكن العفريت رأى الفأس وهى تُحدِّثُه ، فقال : لا أرى فيما تقولين صِدْقاً ، وهذه الفأسُ دليلُ إنكارك وكَذِبك ، فقالت : ما قلتُ إلا حَقّاً ، وما سمعتَ إلا ما جَرى ، فقال : ولنْ أكونَ جرجريس حتى أُحضِر صاحبَ الفأسِ أمامَك .

وفى صباح اليوم التالى دخلَ الخائِطُ حُجرتى التى أقامنى فيها عنده ،

وقال لى : فى دُكانى أعجمى يسألُ عنك ، وفى يدهِ فأسُك ، جاء بها إلى الخيّاطين قائلا : خرجتُ لصلاةِ الفجرِ فى المسجد ، فعثرتُ على هـذه الفأس ، فهل تعرفون صاحبَها ، حتى يأخذَها ؟ فدلُّوهُ عليك ، وهاهو ذا فى الدكانِ يطلُبُك ، فانزِلْ إليه ، واشكر له هذا الصنيع الجميلَ ، فجفّ ريقى ، وما تحركَ لسانى ، وخدِر حسّى ؛ فلم أُفق إلا أمام الفتاةِ باكية متوجعةً من شدة ما أصابها من الأذى ، ثم قال العفريتُ لها : أليسَ هذا الذى كان عندَك وهذه فأسُه ؟! فقالت : لم أرهُ إلا فى صُحبتك ، فقال : إن كنتِ صادقةً فاقتليه بهذا السيف ، فقالت : وكيف أقتُلُ إنساناً بغيرِ حق ؟! فالتفت العفريتُ إليه قائلا : ولكى أعرفَ أنه لا صلةَ بينك وبينَها ، فخذْ هذا السيفَ واقتلها ، فقال : إذا زهِدَت المرأةُ فى اجتراحِ إثم أو خطيئةٍ ، فأجدرُ بالرّجُل أن يكون أشدَّ زُهداً .

فلم يُطق العفريتُ صبراً ، وضربَها بسيفِه ، فشقَّها نِصْفيْن ، ثم دار بيدِه حولَ رأسى متمتماً ، فمُسخْتُ قرداً ، ثم قذفنى على ظهرِ الأرض فى تلك الصورة الممسوخة ، فجعلتُ أمشِى فى منا كِبها ، حتى أشفيتُ على البحر ، فلاحتْ لى مركَب راسيةٌ ، فأمَمْتُها وركبتُ فيهـا ، فقال بعضُ مَنْ فيها ، هذا نذيرُ شرٍّ يأتينا ، وأين نلتمِس السلامةَ ونيلَ الغايةِ وهذه الطلعة المشئومةُ بيننا ، ألقوهُ فى اليمّ أو اقتلُوه ، فأمسكتُ جلبابَ صاحبِ المركب ، رافعاً رأسى إليه ، وإنَّ دمُوعى لمنهمرةٌ . فأدركَ تضرُّعى واستغاثتى ، فرقَّ قلبُه وأجارنى ، وكفلَنى برعايتِهِ وفضلِه .

كان الربّان معقدَ رجائى ، ومناطَ حمايتى ، فحرصت على أن أفهم قولَه ، وألبِّى بشارتَه ، وأكدح فى قضاء حوائجه ، فلم يشتَبه عليه اليقين فى الثّقة بى ، واستخدامى فى شئونه ، والإعجاب بما أفعله .

وبعد خمسين يوماً مِن إقلاعِ المركب احتَضَنها مرفأٌ لمدينةٍ عامرة ، تجيشُ بأهلِها جَيشان القـدرِ ، وأوشك عِقد السَّفْر أن يَنفرِط على الشاطئ ، فجاءتنا جنودٌ من قِبل الملك فى هذه المدينة وقالوا : إن الملك يهنئُكم بقـدومكم سالمين ، وإنه لفى حاجة إلى كاتب ، ويطلب أن يكتب كلٌّ منكم فى هـذه الورقة سَطرا ، فاتجهتُ بعينى وقلبى إليها واختَطفْتُها ، لأكون أول كاتبٍ فيها ، فأصابَ زمَرَ الوافدين مَعى وجومٌ ذاهل وارتقبوا : ماذا أفعلُ ؟! فكتبْتُ فيها سَطرين منسّقَيْن يشِعَّان جودَةً وروعةً : وينطقانِ بما تستمعين :

لقد كتبَ الدهرُ فضلَ الكرام	وفضلُك للآن لا يُحسب
فلا أَيتمَ الله منكَ الورَى	لأنك للفضـل نِعمَ الأب

ثم ناولتُهم الورقةَ ، فتَبيَّنْتُ فى نواظِرِهم لوائحَ العجب ، وعلى وجوهِهم دلائل الدهْشةِ ؛ ثم كتَب كلٌّ منهم ما شاء ، فلم يعجب ملك المدينةِ غيرُ خطِّى وقولى ، فأمر جندَه ، أن يأتوا بِى إليه ، لابساً حلةً من عنده ، راكباً جواداً من جِيادِه ، فحـامَتْ فوقَ أفواهِهم ابتسامةٌ حائرةٌ ، وجاشَتْ صدورهم بقول مكبوتٍ .

وأدركَ الملكُ منهم ذلك ، فقال : أرى قولًا يتردّد فى نفوسِكم ، فماذا عندَكم ؟

فقالوا : إن الذى أعجبَك خطُّه وقولُه ، وطلبتَ حضورَه — قردٌ وليسَ بإنسانٍ ، فزاده العجَبُ تشبثًا بِى ، وأصرّ على إحضارى بين يدَيْه ، لابِسًا راكِبًا . فصدَعوا بأمرِه ، وكنتُ بعد ساعةٍ أمامَه ؛ فقبّلتُ الأرضَ بين يديهِ ، ثم أمرنى بالجلوس ، فجلستُ فى أدبٍ بالغٍ ، حيثُ يجلسُ مثلى فى حضرةِ المليكِ وحاشيتِه ، فقالَ بعضهم على بعضٍ يتناجَوْن : ما هذا عملُ قردٍ ! وما ذلك إلا بشرٌ تمثّلَ فى صورتِه ! وكان الملكُ أشدَّهم عجبًا ودهشةً ، ثم أمرَ الحاضرين أن ينصرفوا وأبقانى معه ، وأشارَ إلى خدَمهِ أن يُحضروا مائدةً حافلةً بصنوفِ الطعامِ والشراب ، وتوسطَتْنا المائدةُ كأمرِه ، فجعلتُ آكلُ معه ، كما يأكلُ وزيرٌ عاشَر مليكه فى أدبٍ شاملٍ ، وإجلالٍ كاملٍ ، ووفاءٍ عظيم .

ثم أحبَّ الملكُ أن يتبيَّن من أمرى أكثرَ مما عَرف ، فأحضرَ شِطرَنجًا كانَ فى ناحيةٍ من مَجْلسه ، ووضَعهُ بينَ يديْه ، وأشارَ إلىّ أن ألعبَ معه ، فغلبْتُه مرتيْن ، فأرسلَ إلى ابنته أن تحضُرَ ليُرِيها منّى ما حيَّرَه وأدهَشه ، وما كادَتْ تلجُ بابَ الحجرةِ . وتُطْبع صورَتى فى مرآةِ عيْنيها ، حتى غطّتْ وجهَها قائلةً : متى طابَ قلبُكَ يا أبى أن تبعثَ فى طلَبِى ، والأجانبُ من الرجالِ فى حضْرتِك ؟ !

فقال : إنكِ لا ترَيْن إلا أباكِ ، وهذا القرد الذى أردتُ أن تقِفى على

ما يُثيرُ الدهشةَ من أعماله .

فقالت : ما ذلك بقردٍ ، ولكنه ابنُ ملك ، حذق العلمَ والأدبَ ، مسخه العفريت جرجريس قرداً ؛ فالتفتَ إليَّ قائلا : أحقٌّ ما تقولُ ابنتي ؟! فأشرتُ برأسي : أن نَعمْ ، وفاضت عيناى بدمعٍ منهمرٍ .

فقال الملكُ لابنته : وكيفَ عرفتِ ذلك ؟!

فقالت : كانتْ عندنا امرأةٌ عجوز — رحمها الله — علّمتْنى من السِّحر سبْعين بابا ، أضعفُ بابٍ فيها أستَطيع به أن أجعَل مدينتَك هذهِ بحراً لُجِّيًّا ، وأهلَها سمكاً يموج فيه .

فقال : بحقِّ عندَكِ أن تخلِّصِي هذا الشاب من صورته ، حتى أتخذَه لى وزيراً ، ينفَعُنا بعقْله وعِلْمه .

فقالت : ذلك ما سَيكون .

وانتحتْ ناحيةً وجعلتْ تخطُّ على الأرضِ بأصبعِها ، وتَتلو كلاماً لا تَعرِفُه ولا يتَبيَّنُه أحدٌ .

وما هى إلا لحظةٌ حتى أطبَق علينا ظلامٌ كثيفٌ فى القصرِ ، وكنا بين طياته كالأطيافِ الحزينةِ فى الليل خلال القبورِ ، فاضطربنا اضطراب القنيص ، نكابدُ من الفزعِ فى نفوسنا ما نكابد ، ثم انقشَع الظلامُ رُويداً رويداً ، وإذا بالعفريت جرجريس يظهرُ بيننا فى أبشعِ صورةٍ ، فقالت بنتُ الملك : لا أهلاً بكَ ولا سهلاً ، سأجعلكَ غِسليناً على فَحم ، انتقاماً لبنت الملك التى قتلتها ، وحرمتها زوجَها وأهلَها ، ولابن الملكِ هذا

الذى مسختَه قردًا ؛ فانتفض العفريتُ وتحول أسداً ، وهمَّ أن يفترسَها فأسرعت وأخذَت بيدها شعرةً من رأسها ، وتمتمتْ ونفثَت فيها ، فانقلبَتْ سيفاً ماضياً وابتدرَته بضربة جعلتهُ قسمَين ، فتحولَ رأسُه إلى عقربٍ ، فصارت البنتُ حيةً ، وجعلا يقتتلان .

ولما لمس العفريتُ الفشلَ تبدّل إلى عُقاب ، فكانت البنتُ نسرًا ، فلم يُدرِكْ منها مأرباً ، فتحول إلى قط أسوَد ، فصارتْ ذِئباً .

ولما رأى الخطرَ محدقاً به ، تغير إلى رُمانةٍ كبيرة ، ارتفعت فى الجو ارتفاعاً عظيماً ، ثم سقَطتْ على أرضِ القصرِ فانتثَرت حباتُها هنا وهناك فبدت البنتُ ديكا طِفق يلتقطُ حبّ الرمانةِ حبةً حبةً ، حتى أتى عليها ، ولكن حبةً واحدةً بقيَتْ وجعل يبحثُ عنها ، وهى مختبئةٌ فى ناحية ، فاما رَآها وذهبَ إليها ليلتَقطَها وثبَتْ منهُ فى فسقيةٍ بساحةِ القصرِ ، فصارت البنتُ حوتًا عظيماً ، ورمى بنفسِه فيها ، وغاب عنّا ساعةً ، ثم دهمَنا صراخٌ كأنه الصيحةُ ، وإذا بالعِفريت خارجٌ من الفسقية كأنه إعصار فيه نارٌ ، يرمى مَنْ فى القصر بشرَرِه ، فأتْلفَ أثاثًا ، وأماتَ أشخاصاً ، وكان نَصيبِى أن أصابت شرارةٌ عينى هذه فعوِرت .

وبينما نحنُ غارقون فى هذا الفزع الأكبرِ ، والخطرِ الأحمرِ ، إذ سمِعنا صوتاً يردد : الله أكبر ، هزَمَ العدوَّ ربى ونصر ، وخَذلَ من جَحد بآياته وكَفرَ ؛ وإذا بنت الملك قد رَمت العِفريت بين أيدينا رَمادًا ، ثم جاءت بوعاءٍ به قليلٌ من الماء ، وقرأَتْ عليه ما قرأَتْ ، ثم رشّتنى به فكنت

إنساناً أعورَ . وما كدنا نَستَرْوِح من هذا البلاء ، وإذا بِبنتِ الملكِ تصيحُ : النارَ ، النارَ ، فلم نجدْها بعد لحْظةٍ إلا تُراباً . فعم الحزنُ أنحاء القصرِ ، والتفت إلى الملك قائلا : قد كنتَ السبب فى هذه المصيبة ، ولكنه المقدرُ الذى لَيس لنا ولا لك فيه حيلةٌ ، فارحَل عنّا هذه الساعةَ وستجدُ فى أرضِ الله مُراغماً كثيراً وسَعة ، فغادَرت القصرَ أمشى فى مناكبِ الأرض ، تتلقّفُنى البلادُ بلدةً بلدة ، حتى كنتُ فى بغداد ، والتقيت بهذين الأعورين ، وحمَلتْنا أقدامُنا إليك فى هذه الليلة ، وتلك قصتى

فقالت الفتاةُ : امسحْ على رأْسك واذهب إلى سبيلك .

فقال : على أن تأذَنى لى بالبقاء حتى أستمع لما يقوله الأعور الثالث :

فالتفتت إليه قائلة : وما قصّتُك أنت ؟ ! فقال :

(٤)

ورِثتنى أبى ملكَه ، فأقمتُ عِوَجه ، ورأبتُ صدعَه ، واستروَحَ الناسُ فى عدله ، وتقلّبوا على مهادٍ وثيرة ، من إحسانِه وخيره ، وقد واتتنا الأيامُ وآخانا الزمن ، وكانت مدينتى على شاطئ بحرٍ مترامى الأطراف ، ممدودِ الجنبات ، يتخللهُ جزائرُ عدة ، وكان لى ميلٌ إلى الأسفارِ فى البحار ، فرغبتُ أن أسيح فيهِ ومعى من الأعوانِ ما نتّقِى بهم أليمَ الحوادِث ، ومن الزادِ ما يَكفينا أربعة أشهر .

أقلتْنا المركب وخاضت بنا ثَبَج البحر صاعدةً هابطةً ، عشرة أيام كاملة ،

ثم غَضِبَ البحر غضْبةً قاسيةً ، فثارتْ رياحُه ، وتطاوَلت أمواجُه ، وكثُف ظلامه ، وكادَ الموتُ يتخطفُنا من كل جانب ، والمركب سائرةٌ ، لا ندرى أين تتجهُ : ليلةٌ حالـكة الجلباب ، غدافية الإهاب ، ولما بانَ البحر للربُّان على ضوء المصباح ، اشتبهتْ معالمُ البحر فى نظره ، وظنَّ أنه ضلَّ السبيل ، فصعد الى ذِروة الساريةِ ، وأرسل على سطح البحر بصرَه ، فرأى شبحًا يبدو أسود تارة ، وأبيضَ تارة أُخرى ، فنزل كئيباً حزيناً ، وقال : لقد هلـكْنا ، فقد ضللْنا وقت غضبةِ البحر طريقَ السلامة ونحن قادمون على جبل المغناطيس ، الذى يَجذب الحديد إليه ؛ وما كاد ينْتهى من قولِه حتى رأوا المركب تجرى مسرعة، نحو جهة معينة ، فأيقَنوا أن الجبلَ جذبها ، ولا مَفرّ من انسياقِها إليه ، وما لبِثوا غير قليل حتى كانت المركب قريبًا من الجَبَل ففرت المساميرُ إليه ، وصارت فِرَقًا متناثرةً ، فغرِق منّا مَنْ غرِق ، ونجا على الألواحِ وبالسِّباحةِ من نجا ، ومن نجَوْا مِنّا لم يُقَدَّر لهم الالتقاء ، وكان هذا الجبلُ من فوقِه قبةٌ نحاسية ، على عمد من رُخام ، وعلى ذِرْوَتها تمثالُ فارسٍ على جوادِه ، ممسِك رمْحَه ، وعلى صدره لوحةٌ نحاسيةٌ نقشَ فيها طلاسِمُ وصور ، وكتبَ عليها : ما دامَ هذا الفارسُ على جوادِه ، فلا منجاةَ لمركب تمرُّ من تحتْه .

فنجوْت من البَحر ، وصعدت فى سُلم الجبلِ المشوّه ، الذى صنَعتهُ يد الطبيعة لتمد به اللّاجئ ، وتشُد أزرَ الهارب ، وترفَع الصاعِد إلى ذروَة الجبلِ متى أراد ، متحامِلًا على قوتِه وحذَرِه ، ويأسٍ يتضاءلُ الجبل أمامه ،

فلاحتْ لى القبةُ عن كثَب ، فذهبتُ إليها وجلَسْتُ فيها آخُذ راحتِى وجِمامِى ، فأخذتنى سنةٌ من النومِ ، سمِعْتُ فيها ذلك النِّداء : يا ابنَ الخصيب ، إن أردْتَ العودةَ سالمًا فاحْفر تحتَ قدَميك ، تجد قوْساً وثلاثَ سِهامٍ ، ثم ارْمِ هذا الفارس بالسهام حتى يَقَع ، فإذا وَقَع وسقَط القوسُ من يدِك فادْفِنه تحت الثَّرى ، فإن تَمّ ذلك فإنَّك واجدٌ هذا البحر طَفِق يرتفع ماؤُه حتى يَصِل إلى قمةِ ذلك الجبل ، فإذا كان هذا ورأيتَ مركبًا مقبلاً عليكَ ، فاركبْ فيه واحذرْ أن تُكلِّمَ صاحبَه ، فإنّه سيَنقلك إلى بلادٍ آهلةٍ بالناس ، وإن أنْتَ تكلمتَ فى المركب ألقاكَ فى اليَمِّ وكنتَ من المُغرَقين .

ولما نهضْتُ من نومى قمتُ بكل ما سمِعتُه إلى أن كنتُ فى مركَب السلامةِ ودَنوتُ من البَرّ فأنسانى الفَرَحُ ما أُمِرْتُ به من الاستمساكِ بالسكوتِ ، فقلتُ الله أكبر ، فألقانى فى البحر وذهبَ إلى سبيلهِ ، فجعلتُ أُصارِعُ الموتَ حتى رُزِقت بموجةٍ قويةٍ دفعتْنى إلى الشاطئ ، ونجوتُ بعَونِ الله وفضلِه .

جفّفْتُ ثيابى وجعلتُ أسير هُنا وهناك ، فألفَيتُ ما أنا فيه جزيرةً صغيرةً خاليةً من نافِخ نار ، فقلت لا أفِرُّ من بَليةٍ إلا إلى أُخرى ، فقد نجوتُ من الغرَقِ ، إلى أرضٍ أموتُ فيها من الجُوعِ والعطشِ صبراً ، ثم رأيتُ شجرةً باسقةً ، فصعدت فيها ، أنظرُ من أعلاها إلى ما حَولى ،

لعلّي أجدُ لي مَذهباً ، فلاح لي مركَب قادمٌ ، فلبثْتُ فوقَ الشجرةِ أرى ما سيكون .

رَسَى المركَب على الشاطىء فوثبَ منه عشرةُ عبيد ، بيدهم مساحٍ ، وجاءوا وسطَ الجزيرة ، فكشفوا بمساحيهم الترابَ عن بابٍ كالغطاء ثم رفعوه عن مغارةٍ في الأرضِ ، لا أدري مداها ، ولا مَن فيها ، وجعلوا يترددون بين المركب وهذه المغارة ، ذهاباً وجيئة ، حتى نقلوا إليه جميع ما أحضروه معهم ، من خبز ودقيق ، وسمن وعسل ، وغيرها من مواد المعيشة وأدواتها ، ثم جاءوا من المركب آخر مرة ، في ثيابٍ أنيقة ، ومعهم شيخٌ فانٍ ، وفي يده فتى خلقه اللهُ فأحسن خَلقه ، وأكمل حُسنه ، حتى وصلوا إلى المغارةِ ، وغابوا فيها ، فانتظرتُ غير طويل ، فإذا الشيخُ وجماعتُه منها خارجُون ، ولكن الفتى لم يكن معهم ، فأسرعوا إلى مركبهم الذي أقلعَ بهم إلى حيثُ جاءوا

لم تُطوّعْ لي نفسِي أن أُغفِل أمر الفتى دون أن أعرفه ، وكيف أرى بعيني رأسي فتًى تخاله من الحورُ العين ، يتركهُ جماعةٌ من بني آدم في بطن الأرض وحيداً فيما أظُن ، ثم يُحكِمُون الغطاء على فتحةِ المغارةِ ، ويُخفُونه بالتُّرابِ . حتى لا يَظُنّ سالكٌ أو عابرٌ أنّ هنا فتحةً أو مغارةً ، ومن يدري ؛ ربما قتلوهُ أو فعلوا شيئاً لا يخطُر على بالٍ ، ذلك ما جعلني أتشبّثُ بالهبوطِ في المغارةِ ، لأقشعَ سحُبَ الغموضِ عن هذا الأمر الخطير ، الذي أصبح عندي كلّ شيء ، فأسرعتُ إليها ، وأزلت غطاءها ،



وهويتُ على سلّمها ، فإذا أنا فى مكانٍ ممدود الجنبات ، قامت به أعمدة ضخمة فارعةٌ لا أكادُ أحصيها عدًا ، تمسكُ سطحِ الأرض أن يقع أو ينهار ، وفى وسطِ هذا المكانِ قصرٌ ذو بابٍ من حديد ، أحكم رتاجُه ، حتى لا يستطيعَ أحدٌ أن يفتحه ، فسحْتُ فى المكان هنا وهناك ، فلم أجدْ إلا العمد والقصر ، فعرفتُ أنه مكمن السر ومخبأ الغايةِ ، فجعلت أدفع الباب وأجذبُه ، وأطرقه طرقًا عنيفًا تارةً ، وخفيفًا هينًا تارةً أخرى ، عسى أنْ يكون من ورائه أحد فيفتحه ، ولكنى لم أسمع صوتا ، ولم أحسّ حركةً ، فقوى فى نفسى تشبثى بالقصرِ ودخوله ، وجعلت أتحسّسُ الباب جزءا جزءا ، فإذا بقطعةٍ من الحديد تتحركُ فى يدى ، فحركتُها جهةَ اليمين وفُتح البابُ .

دخلتُ القصر أسترقُ الخُطا ، فألفيتُ ردهةً فسيحةً ، تفتّحت فيها أربعةُ أبوابٍ لحجُراتٍ أربع فهذه ، تحوى زادسنةٍ لأناسٍ ثلاث . وهذه بها كراسى مصفوفةٌ ، وبسطٌ مفروشةٌ ، وصوان فيه كتب لقصص مختلفة ، وتلك فيها المرافقُ ومضخة تمدّ من يشاء بالماء من بطن الأرض ، أما الرابعة فقد دخلتُها فألفيتُ الفتى منزويًا فى نفسه على سريره ، حائل اللون ، مقشعر الجلد ، بما أصابه من رُعبٍ وفزعٍ ، فقد أيقن أنّى عفريتٌ من الجنّ ، انشقتْ عنه الأرضُ ، فجاءه ليقضى عليه .

سَرّيت عنه بقولى : لا تخفْ أيها الفتى ، فأنا إنسانٌ مثلك ، وعلى استعدادٍ لإيناسِك وخدمتك ، فجرى فى جسمه دم الاطمئنان واعتدل جالساً ،

فجلستُ بجوارهِ وابتدرتُه قائلا : وما قصتُك أيها الفتى ؟ فأنس إلَيَّ وقال : أنا ابنُ شيخٍ كبيرٍ ، لم يرزقْ إلا بى ، بعد أن بلغ من الكبر عتيا ، فجاءه منجِّمٌ يوم ولادتى وأخبره أن خطراً يترصدُنى عندما أبلغُ الخامسةَ عشرةَ من عُمرى ، وذلك أنَّ ملكاً يدعى عجيبا . سيقتُلنى عندما أقطعُ هذه المدةَ من حياتى ، فهيأ لى والدى هذا المكان ، وجهزهُ بكلِّ ما أحتاج إليهِ ، ولما بلغتُ الرابعة عشرةَ ، جاء بى إليه ، وتركنى فيه ، حتى لا ألتقِى بالملكِ عجيب ، إلى أن يمضى وقتُ الخطرِ ، ثم ينقلُنِى إلى قصرِه ، وقد أمِن على حياتى أن يصيبها مكروهٌ ، فابتسمتُ ابتسامةَ عجبٍ ساخرةً ، وقلتُ : ومتى صدق المنجِّمون ؟ أنا الملكُ عجيب ، وقد ملأتَ قلبى حبّا لك ، وحدَبا عليك ، فلا تخش شيئاً ، وسألبثُ معك هذه السنةَ ، حانيا عليك ، قائما بشئُونك ، حريصا على حياتك ، حِرْصى على نفسى ، ثم عشنا على أهنأ حال ، وفى آخر يومٍ من السنة الخامسة عشرة من عمره ، تاقت نفسُ الفتى إلى أن يأكل بطيخة ، فقلت ناولنى السكِّين ، حتى أهيئْ لك البطيخ الذى تَبْغِيه ، فقال : إنه على هذا الرفّ العالى ، فوقفتُ على كرسى وأمسكته بيدى ، فاختلَّ توازُنى ، ووقعتُ على الفتى ، ودخل السكينُ فى صدره فَقُضِىَ عليه ، فكادتْ نفسى تذهب حُزنًا وأسى . وقلت : لا حولَ ولا قوة إلا بالله ، لكلِّ أجلٍ كتابٌ ، أينما تكونُوا يدرككم الموتُ ولو كنْتُم فى بروجٍ مشيدةٍ ، ثم غادرت المغارةَ إلى الشجرةِ ، متوقِّعا حضور أبيهِ ومن مَعه .

وما كدتُ آخذ مكانى على غُصنٍ من غصونها حتى رأيتُ المركب راسيًا . يلفظ القوم على الساحل ، ثم ولَّوا وجوههم فى سيرهم شطر المغارة ، فهالهم أنْ رأوْها مفتُوحة ، فدلفوا إلى جوفها مُسرعين . وما لبثُوا غير قليل ، حتى خرجُوا يحملون الفتى ، جثةً هامدةً ، وتعلُو وجوهَهم من الحزْنِ غبرةٌ ، وعيونهم تتفجُر بدُموعٍ منهمرةٍ ، وأقلَّهم مركبهم إلى حيثُ يريدون .

ودَّعت الشجرة . وطَفِقْت أمشى فى مناكِب الجزيرةِ ، حتى كنتُ أمام قصرٍ يطاوِلُ السماء ذى شُرفةٍ كأنها قُرطٌ معلقٌ فى أُذن الجوزاء ، فطرقت بابَه ، ففتحه شيخٌ معمَّر فاستأذنتُه أن أدخلَ فأذن ، فولَجتُه إلى بهو فسيحٍ به رجالٌ عشرة ، جالِسُون على أرائك مصفوفة ، قد عورَتْ أعينُهم اليسرى . فسلمت وجلستُ ، وأبديْتُ رغبتى فى البقاء معهم يجرى علىّ ما يجرى عليهم ، فقالوا : إن كنتَ تبغى الحياةَ سعيدةً ، فسندلك على سبيل تمكِّنكُ منها ، فإنخالفْتَ شيئًا فلا تَلُومَنّ إلا نفسك . فقلت : ولكم علىّ ألا أُخالِفَ نُصْحا ، فقاموا وذبحوا خروفًا كبيراً حنيذا ، وسلخوا جلدَه ، ثم أدخلونى فيه وخاطُوه ، وقالوا سنطْرحُك فى العراء ، فيأتى طائر يسمّى الرخَم ، ويحملك إلى جبل عالٍ ، فإذا ما حَطَّك على قِمّته فشُق الجلدَ بالسكين الذى معك ، وصَلْصِل بالجرس الذى فى يدك ، حتى يفزَع الرخم ويتركك ، ثم سِرْ نحو الشمال حتى ينتهى بك السيرُ إلى مقامِ حياتك السّعيدة . ففعلتُ ما أشارُوا علىّ به ، وسرتُ حتى وجدتُ



قصراً قد موّهت جدرانه بالذهب والفضةِ ، له بابٌ من نحاسٍ أصفر ، يترقرقُ بالجمال ، ويتنفسُ بالصُّوَرِ البارزةِ المختلفةِ ، فوقفتُ أمامه ، أقدّمُ رجلاً وأؤخر أخرى ، يدفعُني إلى دُخوله أملٌ باسِم ، ويمنعني خوفٌ جازِع ، ولكن حسنَه الفاتِن ، ووعْدَ الرجالِ العشرة العور ، جذبانِي إليه ، فدخلتُه على غير استئْناسٍ ، فأسلَمني بابُه إلى دهليزٍ ممتد ، قامتْ على جانبيْه تماثيلُ تحكى أنماطاً من الفُرسان ، وأجْناسا من الحيوان ، لها إشعاعٌ من الجمال والهيبةِ ، يحبِسُ عليها مشاعر السائر وحسَّه ، وتقيّدُ أرجُلَه عن المشى المطردِ السريع ، ثم انتهيتُ إلى بابٍ زجاجيّ فدفعتُه بيدى دفعاً هيّناً ، فطاوعَنى وانفرَج عن بهوٍ فسيح عامرٍ بفتياتٍ أربعين ، جالساتٍ على كراسى من عاجٍ مُطعّم بفصُوصٍ من ذهبٍ وفضّة ، سطعْن فى البهو سُطوع الكواكِب المنيرةِ ، لا تكاد تميزُ واحدةً عن واحدة ، كأنّهن اللؤلؤُ المنثُور ، خرجْنَ من أصدافٍ متساويةٍ ، فهنّ متشابهاتٌ قواماً وخِلقةً ، وجمالاً وروعةً ، فنظرن إلىّ فى ابتسامةٍ تنمُّ عن أُنسٍ بلقائِي ، وخففْنَ لاستقبالِى فى سُرورٍ وبهجةٍ ، وقلنَ لى لقد كتِبتْ لك السعادةُ والعيش الآمِنُ الرغيد بالمقامِ بيننا ، فأنتَ أخُونا ، لك منّا كلُّ حنان وإجلالٍ ، ثم أدخلْننى الحمّامَ فأزلتُ عن جِسمى أدرانَ البُؤْس الغابِر ، وارتديتُ حلةً من عندِهِنّ لم تقع عينى على مِثلها جمالاً وروعة ، ولبثتُ معهن أتقلبُ على مهادِ النعيم سنةً كاملة ، ثم قُلنَ لى : نحن بناتُ ملوكٍ ، نذهبُ كل عامٍ إلى آبائنا فنمكثُ فى

ضِيافتهم أربعين يوما ، ثم نعودُ إلى قصرنا هذا . وهذه مفاتيحُ القصرِ تتنقّل فى أرْجائِه ، وتنعَم برخائِه ، وتدخل كلَّ حجراتِه ، إلا هذه الحجرة عينها فلا تفْتحْها ، حتى نرجِعَ إليك ، ثم ودَّعنه إلى حيث يقصدْن .

أقمتُ عشرين يوماً لا أشعر بالوَحدةِ ، ولا أُحِسّ وحشةً ، لوَفرةِ الخير بالقصرِ ، وتنَوعِ مغرياتِه ، وما شغَل بالى فيه إلا تلك الحجرة التى حرَّمن علىّ فتحَها ، فوقفتُ أمامَها يوماً ، يدفعُنى حب الوقوفِ على ما فيها ، ويمنعُنى وخامةُ العُقْبَى ، وسوءُ المنقلَب ، ثم قلتُ فى نفسِى : إن الموتَ أخْوَفُ ما يخافُه المرءُ على نفسِه . وما دام له وقتٌ محدودٌ ، لا يتقدم ساعةً ولا يتأخرُ ساعة ، فلأَفْتَحها ولا ضيرَ عَلَىَّ ، فوجدتُ فيها فرساً مُسْرَجاً مِن أحسنِ ما رأيتُ جمالا وقوة ، ففَككت قيدَه ، وعلَوْت صهْوَته ، وحرَّكْتُ قدَمى أستَحِثُه فلم يتحرَّكْ ، فتناوَلتُ مِقْرعة كانتْ معلقةً على جدارِ الحجرةِ ، وضربتُه بها ، فطارَ بى ، حتى حَطَّنى على سطحِ منزلٍ وضرَبنى بذَيلِه فأتلَفَ عيْنِىَ اليُسرى وطارَ إلى حيثُ لا أعرِفُ له سَبيلا ، ثم نزَلتُ إلى جوفِ المنزِل فألفيتُ الرجالَ العورَ العشرة ، فعرضْتُ عليهم أن أكون مَعَهم ، فلم يَقْبَلوا لأنى لم أستمِع لنصْحِهم ، وقذفوا بى خارج المنزل ، فى حال زَرِيَّةٍ ، فسرتُ على غيرِ هدًى ، متنقلًا من بلدٍ إلى آخر ، حتى كنتُ فى بغداد والتقيت بهذينِ الأعورين ، وجئْنا إلى هذه الدار ، فقالت الفتاةُ : امسَحْ على رأسِك وغادِرْ مجلسَنا ، فقال : حتى أستمع لِقِصة هؤلاءِ الأكابر .

(٥)

والتفتت إلى الخليفةِ ومن معه وقالتْ : وما قصتكم ؟ فقال الوزير : قصتُنا ما سمعتِها من أختِك عند دخولِنا ، فقالتْ : قد وهبتُ بعضَكم لبعضٍ ، وعفوتُ عنكم ، على أن تغادرونا الآن . فقالوا : ولكِ عظيمُ شكرِنا .

ولما خرجوا من المنزلِ قال الخليفةُ للعور الثلاثةِ والحمالِ : أين تذهبُون في هذا الوقتِ من الليل؟ فقالوا : لا ندرى ! فقال : حينئذٍ وجبَ أن تكونوا ضيوفَنا الليلةَ ، ثم أمر جعفرًا أن يتولّى أمرَهم ، ليُحْضِرَهم غداً بينَ يديْه ، ومعهم البناتُ والكلبتان .

جلس الخليفةُ على عَرشِه ، ومعهُ وزيرُه وبقيةُ وزرائِه ، عن يمينِه وعن شماله ، على كراسى من العاجِ وثيرة المقاعد ، فى بَهْوٍ فخم مهيبٍ فُرِشتْ أرضهُ بالطنافسِ العجَمية الوبرةِ ، وتدلّتْ من سقفِه المموهِ بالذّهب ثرياتٌ تتألقُ تألُّقَ النجومِ فى السماء ، وأمرَ بإحضار البنات والكلبتين والرجالِ الأربعة ، فلما مَثلوا بيْن يديْه ، قال الوزيرُ للبنات : أنتن الآن فى حضرةِ أميرِ المؤمنين ، وقد عفا عنكنَّ كما أَحسنتنَّ إلينا ليلةَ أمس ، على أن تقُلْنَ الحقَّ فيما تَسأَلْن عنه ، فإنّ أميرَ المؤمنين أيدَه اللهُ حريصٌ على أن يَقف على حقيقةِ أمرِكُن .

فتقدمتْ إحداهُن قائلةً : هاتان الكلبتان أختاىَ لأبى ، وأنا أصغرهما

سنًّا ، ماتَ عنا والدُنا قبلَ أن تتزوَّج واحدةٌ منا ، وورِثنا خمسة آلاف دينارٍ ، فأخذَتْ كلٌّ منا نصيبَها منها ، ثم تزوجَتْ أختاى هاتان من تاجريْن بالمدينةِ ، وبعد مُدةٍ من زواجِهما ، رغبوا أن ينْزِحوا عنهما إلى حيثُ يجدون الربح الوفير ، وبعد أربع سنين من غيابهم ، جاءتْنى أختاى هاتان فى شكلٍ مبذوء ، وثيابٍ رثةٍ ، وهيئةٍ زريةٍ ، لا تفترقانِ عن شحَّاذَتَيْن حالفَهما البؤسُ المضْنى ، والعُدْمُ الكَرِيهُ ، فغشِيَنى من الهمِّ ما غَشِيَنى ، أسفاً عليهما وحَسرةً ومحوْتُ بالوُجْد عنهما أدران الفقرِ ، وآلام الحاجةِ ، ونزعتُ عنهما لباس الذلة والمسكنة ، وكسوتهما ثيابَ الغِنى والعزَّةِ ، وجعلتُ مالى بينى وبينَهما على سَواء ، ثم سألتُهما عما حَلَّ بهما فقالتا : فقدْنا المالَ ، وسرَّحَنا الأزْواج ، وهذا قضاءُ الله . ثم قامتْ كلٌّ منهما بتثْميرِ ما نالَها من مالى ، فكانتا بعد سنةٍ ، من ذواتِ الثراء ، ولما أنساهما ما أصبحتا فيه من الترفِ والغِنى مِحَن الأيام وبُؤْسَها ، واستَعرت حرارةُ الحياةِ فى جِسْمَيهما ، رغبتا فى الزواجِ مرةً ثانيةً ، فقلتُ لهما : لقد جربتما الزواجَ فلم تجدا فيه صلاحاً ولا خيراً ، لأنَّ الطيِّبين مِن الأزواجِ فِى هذا الزمن قليلٌ ، وقد يكونُ حظُّكما فيه هذه المرةَ ، أنكدَ من حَظِّكما فيه لأوَّل مرةٍ ، فما استَمعتا لى نصحاً ، وتزوجتا على الرغمِ منى ، وما هى إلا مدةٌ قصيرةٌ ، حتى غادَرتا بيْتَ الزوجية مسرَّحتَيْن ، لا تملكان شيئاً ، وعليهما خِلَع العُدم والمَذلة باديِة ، وقالتا : لا تؤاخِذينا بما فعلنا ، وأصبحْنا لا نعصِى لكِ أمراً ، وقد نَفضْنا أيدينَا من الزواجِ

وشِقوتِهِ ، فأكرمْتُ مثواهُما ، وحنوْت عليهما حنُوَّ الأمِّ على فطِيمها .

ثم أعددْت بضاعةً للسفر بها إلى البصرة ، وخيّرتُهما بين السفر مَعى ، والبقاء بدارى حتى أعود إليهما ، فقالتا : نحن معك أينما كنت ، ولا نستطيعُ صبرًا على فراقِك ، والمكثِ بالدارِ من دُونِك ، وكنت قد دَفنْت نصفَ مالى فى دارِى ، أتّقى به ما عسَى أن أُلاقِيَه من الفَشلِ والْخُسرانِ فى تجارتِى .

وأَقلّنا المركبُ إلى البصرةِ ، ولكنْ قُدّر له أن يضلّ السبيل إليها ، وتنبّه صاحبُ المركب إلى أنه يسيرُ به فى مياهٍ لم يرَها من قبلُ ، ثم بدَتْ لنا مدينةٌ عن كثَب ، فقال : الحمدُ لله الذى كتبَ لنا السلامةَ ، وما دُمتُن تاجرات فانزِلْن فى هذه المدينة ببضاعتِكن ، فعَسى أن تجدنَ فيها من الكسب والربح أكثرَ مما تجدْنَه فى البصرة وسواء على التاجِر أن يبيعَ بضاعتَه فى هذه المدينةِ أو تلك . فقلتُ : ولعلّى أبلغُ فيها ما أُريد .

ودخلنا هذه المدينةَ ببضاعتِنا . فوجدنا أهلَها قد مُسِخُوا حجارةً سوداء ، ومنازلُهم وحوانيتهم ، وبضائعهم وأموالهم لا تزالُ على حالِها باقية . فشغَلتْنا الأموالُ وكثْرتُها ، وسهولةُ الحصول عليها ، فلا بيْع ولا شراء ، ولكنه ذهبٌ يعبَأُ ، وبضاعةٌ تؤخذُ ، على قدرِ ما يتّسِع له جهدُ الآخِذ . واتخذَتْ كل منّا فى المدينةِ سبيلًا غيرَ الذى اتّخذَتْه الأخرى . على أن يكونَ اجتماعُنا ولقاؤُنا عند المركَب على الشاطىء .

وكان حظّى أن وجدتُ فى طريقى قصراً منيفاً ، لا يشكُّ الناظرُ إليه

أنه قصرُ ملكِ هذه المدينةِ ، فولجتُ بابَه إلى ردْهة مستطيلةٍ مفروشةٍ بالرخام المصقى ، تنْتهى إلى بهوٍ فى استدارة البيضة ، تفتَّحتْ فيه أبوابُ حجراتٍ عدة ، عليها ستائرُ سندسيّة ، مطوية على حواجزها ، فدخلتُ الحجرةَ التى تُواجِه الردهة ، فوجدتُ الملكَ جالساً على عرشِه ، مرتدياً حلتَه الملكية ، وفوقَ رأسه تاجٌ مرصعٌ بفصوص من درٍ يخطفُ الأبصارَ بريقهُ ، وأمامه صفَّانِ من وُزرائه ، عن يمينه وشماله ، وأمام الحجرةِ صفّانِ أيضاً من جُنوده وحَرسه ، وجميعهم حجارةٌ سوداء ، فى صمْت أبى الهول ، وثباتِ الجبل ، فخرجت منها إلى باب آخر ، فرأيتُ سلماً صمدتُ فيه إلى الطابق الثانى ، وأسلمنى السيرُ إلى حجرةٍ من حجراته ، به سريرٌ من الفضة المموهةِ بالذهب ، أسدِلتْ عليه كِلةٌ من إستَبرقٍ ، لا تحجبُ رقتُها ما خلفَها ، ومن فوقِه امرأةٌ مستلقيةٌ ، لم يُبِن غطاؤُها منها إلا وجهاً من حجر أسود ، وكان الليلُ قد أرسلَ طلائعَه ، ونشر ظلامَه ، ففَررْتُ إلى حجرةٍ أخرى بها أرائِك مصفوفةٌ ، فجلستُ فيها أتلُو ما تيسّر من القرآنِ ، ثم أسلِم رأسى إلى النوم ، مرتقبةً إشراقَ الصباحِ ، لأستَأنِفَ البحث على ضوئه حتى أعثرعلى أحدٍ ، وغمرنى القلقُ فى مَوْهِنِ الليل ، فانتبَهْتُ على صوتٍ عذبٍ ، يزيدُه عذوبةً فى السمع ، وأنساً فى القلبِ ، واطمئناناً فى النفس ، أنه يموج بالعِبَر ، مما جاء به كتابُ الله الكريم ، فمشَيْت على هدى من ذلك الصوتِ إلى مَوحاه ومَبْعثه ، حتى وصلتُ إلى مَعبدٍ أضاءتْ قناديلهُ المُدلاةُ من سقفِه ، ومن تحتِها فتى جالسٌ على سجّادَةٍ

أبرةٍ منقوشةٍ ، أجمل ما رأيتُ خلقاً ، يتلو فى خُشوعِ العابد ، وخضوعِ المتبتِّل ، وخشيةَ الذاكر ، ما تيسَّر له من آى الذكر الحكيم فأحضرته من شُيوحِه فى تلاوته ، بطرقةٍ خفيفةٍ على بابِ معبده ، فالتفتَ إلىَّ التفاتةً هادئةً باردةً ، فابتدرتُه بالسلام فردَّه ردًّا كريماً ، فقلت : أسألك بحقِّ ما تتلُو أن تجيبَنى عما أسألُك ، فقال : اجلِسى ولكِ ما تُريدين ، ولما أخذْتُ مكانى على سجادَته قال : أخبِرينى : من أنتِ ؟ وكيفَ وصلتِ إلى هذ المكان ؟ ! فقصَصْتُ عليه خَبرى ، ثم قال : والملكِ كنتِ تريدِين أن تقفِى على نبإ هذه المدينةِ ؟ فقلت : ما أعظَم ذكاءك ، وأهدى بصيرتَك ، نعم ، وذلك ما أردْتُ ، فقال : هذهِ مدينةُ والدى ، وهو مَلِكُها ، كان هو وقومُه يعبدونَ النار من دونِ الله ، وكانَ من خَدَمه عجوزٌ يطمئنّ إليها وَيثِقُ بها ، وكانت تُبدى من الكُفْرِ غير ما تخفيه فى نفسها من الإيمانِ بالله ورسوله ، فوكَل إليها أمرَ تربيتى ، وتمجيسى ، إذ كان يعتقد أنها على دينه ، فعلمتْنى الإسلام ، وحفظتْنى القرآن ، على خِفْيَةٍ من أبى ، وغفْلةٍ من أهلى ، وحذَّرتْنى أن أُعلِن ذلك ، خشيةَ أن يغضبَ أبى فيقتُلنى ، ثم ماتت العجوزُ ، وبقيتُ على عهدِ من الكتمان ، وموثِقٍ من الله بالإيمان .

وبينما القومُ فى كفرهم يعمهُون ، إذ سمِعُوا صوتاً مُدوِّياً طبَّق الآفاق ، يُنذرُهم عذاباً قريباً ، إن لم يَصْبأوا ، ويكُفّوا عن عبادَةِ النار ، ويعبدُوا الله الواحدَ القهار ، ففزِعوا إلى الملِكِ ، يسألونَه عن هذا الصوتِ ورأيه فيه ،

فقال : لا يُفزعنكم شيء ما دمتُ بينكم ، واستمسكوا بدينكم فانصرفوا معتصمين بكفرهم ، ودأب هذا الصوتُ يأتيهم فى مَوعِده من كلّ سنةٍ ، ثلاثَ سنواتٍ دأباً ، فما زادهم إلا ضلالاً وكفرا ، وعُتُوًّا كبيراً ، فَمَسَخَهمُ الله حجارةً على نحو ما رأيتِ ، ونجوْتُ بإيمانى وصَلاتى ونُسُكى ، فقلتُ : إن بغداد معقلُ الدين الخالص من رنق العقيدةِ الواغِلة ، ومشرقُ العلم والهداية ، ومن الخير أن تصْحَبَنى إليها ، لتكون لك دارمقامةٍ . ويُسعدنى إذا اتخذ تَنى زوجاً فهداهُ الله إلى الرَّحيلِ ، وأخذنا ما استطعنا حمله من المال ، وذهبنا إلى المركب ، حيثُ كان ينتظرنا ، وسرّنى أن وجدت أختىّ فى ارتقابى ، وأعلمتُهما ماوقفتُ عليه من أمرِ هذه المدينة ، وذلك الشاب الذى مَعِى ، فنفستا علىَّ زواجى منه ، وأضمرتا الكيد لى وله ، وأنا لا أزالُ مطمئنةً إليهما ، لا ألمحُ فى وجهيهما حقداً ولا غيلَة ، وحمل اليم المركَب يتهادَى بنا ، ويدفعُه النسيمُ فى رفقٍ ولين ، ثلاثة أيام . وفى جوفِ الليل استيقظتُ أنا والشابُ من النوم ونحنُ نتخبّطُ على صفحةِ الماء ، أما هو فلم يكن يُجيدُ السباحة فكتبَتْ له الشهادة ، وكان من المُغرقين . وأما أنا فاستعنتُ بالله وقوتى ومهارتى فى السباحة وجعلتُ أكدَح سابحة ، حتى عثرت بقطعةٍ من الخشب كانت خير عونٍ لى ووقاية ، ودأبت أسبَح جاهدةً ، حتى وصلْتُ إلى جزيرةٍ ، فخرجْتُ إليها أفهق كما يفهقُ المصابُ بِرَبْوٍ فى صدْرِه ، واضطجعْتُ أسترْوحُ من هـذا التعب ، فأخذنى نومٌ عميق ، ثم قمتُ ومشيت فى



مناكب الجزيرة ، فرأيتُ حية تؤمُّنى لاهثَة متعبة ، ومن خلفها ثعبان يدلُّ سيرُه على أنَّه يقصدُها بسُوء ، فأشفقتُ عليها ، ورميتُ رأسَ الثعبان بحجرٍ ، فهلك لساعته ، فتكورَت الحيةُ ، ووثبَتْ إلى الجوِّ طائرةً ، واختفتْ عنى فى طياته ، فجلسْتُ مكانى قائلةً : لا تزالُ الدنيا تُرينا من أعاجيبها ما لا نَدْرى له حِكمة ، وغرقْتُ فى لُجةٍ من التفكير ، أسلمَتنى إلى النوم ، ثم انتبَهتُ فوجدتنى فى حراسة جاريةٍ ، جالسة بجوارى ، فقلت: من أنتِ أيتُها الجارية ؟ ! فقالت : صنيعَة معروفِك وأسيرةُ إحسانك ، أنا الحيَّة التى أنقذْتها من الثعبان الذى كاد يُهلِكنى ، وإنى جِنِّيةٌ طرتُ من أمَامك ، وذهبْتُ إلى المركب الذى كان يحملك ، ونقلتُ جميعَ مافيه إلى منزلك ، ومسخْتُ أُختَيْكِ كلبَتيْن سودَاوين ، لأنهما تآمَرتا على قتلِك أنت والشاب حِقْدا وغيلَةً ، ثم حملتْنى وطارَت بى إلى هــذا القَصْر الذى شرفْتنى يا أمير المؤمنين فيه ، وأخذتْ علىّ ميثاقًا أن أضربَهما بالسَّوطِ كلّ يوم على نحوِ ما رأيت ، جزاء غَدْرهما وخيانتِهما ، وإلا أهلَكتْنا جميعنا ، فأنا أقوم بما أمرتْ فى ألمٍ وحزنٍ وشفقَة وهذه قصَّة الكلبتين .

والتفت الخليفة إلى الثانيةِ قائلا . وما شأن الضربِ الّذى آثارُهُ على جِسْمك ؟ !

فقالت : نَعِمتُ بتراثِ أبى الوفير حيناً غير طويل ، ثم تزَوجتُ برجلٍ سعِدْتُ بعشرتهِ سنة ، ثم لبى نداء ربه ، وخلّفَ لى من المال أضعافَ ما وَرثْتهُ عن والدى ، فلزمت دارى ، حزنًا على فِراقِ زَوجِى ، وذاتَ يوم

دخلت عَلَيَّ عجوزٌ يضُم جلدُها عظاماً نخِرةً ، ولكن عينيها تنِمان عن دَهاء دفين وكيدٍ عظيم .

وبعد أن جَلستْ وأُكرِمَت، قالت: إن لى بنتاً يتيمةً، غرّها ما خلّفه لها أَبُوها من مالٍ ، وعقار ، فشَمستْ من طاعتى ، وضَاعت ثقتُها بى ، ففنَّدَتْ قولى ؛ وارتابتْ فى عقلى ، لكبر سِنِّى ، وهزالِ جِسمى ، وأنت سيدةٌ معروفة بحصافة الفكر ، وصوابِ الرأى ، وسماحة النفس ، وطيب الخُلق ، فلو سمحْتِ بأن تَذْهبي معى إليها ، لتَردِّى عليها رشْدَها ، كان لكِ عند اللهِ المثوبةُ والأجرُ العَظيم .

فقلتُ : وهل أهلكَ منْ قبلَنا من الأُمم إلا أنهم كانوا لا يَتناهَوْن عن مُنكَرٍ فعلوه ؟ وقمتُ معها راجية أن أُوفَّق فى إصلاحِ ذات البَيْن بينها وبين بنْتِها ، حتى وصلْنا إلى قصرٍ منيفٍ ، ينطقُ بالغِنى والعزّةِ ، ودخلتْ بى حجرةً مفروشة ببساطٍ من حريرٍ ، وبه سريرٌ رصعَتْ قوائمه بالدُّرِّ والجوهرِ ، وأُسبلت عليه كلّةٌ وَردِيةُ اللوْنِ ، ولم نكدْ ندخلُها حتى انقشعت الكلةُ عن فتاةٍ تخالُها من الحُور العين ، ثم جلسنا ، وقالت : لى أخٌ جميلُ الخِلْقةِ، بَهِىُّ الطَّلْعةِ ، كأنه البدرُ سَناءً وسَنًا ، وقد سَمِع عن خُلُقِك القويم ، ودينِك المستقيم ، وجمالِك العظيم ، فأحبّك حبًّا جَمًّا ، وقد احتال بهذهِ العجوزِ على أن يَجتمِع بك ، ليراوِدَكِ فى أمر الزواجِ منك ، حتى يُلبِّى هَوى فى نفسِه ، على سنّةِ اللهِ ورسوله ، فقلتُ فى نفسِى : إن الإسلام لا رَهبانيَةَ فيه ، وأجبْتُها إلى رغبتها ، وجاء الشابّ

وأُحضِر الشهودُ والقاضِي ، وتم الزواجُ ، وبقيتُ معه ، في عِيشةٍ رغيدةٍ آمنة .

لم يتركْنا الحاسدُون نَنعَمُ بما نحنُ عليه من محبةٍ ووئام ، فجعلوا يوسْوسُون في صدْرِه حتى ارتاب في أمرِي ، وضاقَتْ مذاهبُه بِي ، ولا أدرِي لذلك سَبباً .

فقلتُ له : لا تَعذيب في العِشْرة ، فإما إمساكٌ بمعروفٍ ، وإمّا تَسْريحٌ بإحسانٍ .

فقالَ : ومَنْ يُنْجِيك من يَدِي بعد الذى قد كان ، سأتْرِكُ على جَسَدِكِ ما يُزهِّد فيكِ القريبَ والبعيدَ ، ثم صاحَ صيحة عظيمةً ، وإذا بعبيدٍ سبعةٍ قد حَضروا بَيْن يديه .

فقال : شُدُّوا وثاق هذه المرأةِ الغادِرة ، وأمسك عصاً من الخيزران، وجعلَ يضربُنِي ضرباً مبرِّحاً ، ثم سَرَّحَني ، وكانت هذهِ — مشيرةً إلى الفتاةِ الأولى — أُختِي لأَبي ، فجئتُ إليها ، فوجدتُ عندَها الكلبَتين فقصَّت كلٌّ منا ما جَرى لها ، ولا يَزالُ أثر الضَّربِ في جسْمِي لم يَنْسَخْه مرورُ الزمن ، ثم تعرَّفنا بهذه الدلالة — مشيرةً إلى الفتاة الثالثة — وعشْنا في القَصرِ على نَحوِ ما رأيت ، وها نحن أولاء حاضرات بين يديك .

فالتفَت الخليفة إلى الفتاة الأُولى ، وقال : أتستَطِيعين أن تُحضِرى الجِنِّية التى سَحرتْ أُخْتَيك ، ومسخَتْهُما كلبَتَيْن ، فقالت نَعم .

ثم أخرجَت شعرةً من جَيْبها وأحرقتْها ، وإذا بِدَوِيّ في القصر

وصلْصَلة ، أعقَبهما حضورُ الجنِّية ، ومثولُها بين يدى أمير المؤمنين وكانت مُسامةً

فقالت : السَّلام عليكَ يا أميرَ المؤمنين .

فقال : وعليكِ السلامُ ورحمة الله .

فقالتْ : حضرتُ إلى أمير المؤمنين طائعةً ، وما فعلتُ أمراً نُكْرًا ، فقد أنْقذَتْ هذه الفتاةُ حَياتى، وهاتان الأُختان خانتاها ، وأغرقتا زوجَها ، بعد إحسانِها إليهما فشوهْتُ بالمسْخ وجودَهما ، دَرْءاً لشرّهما عن أُختِهما البريئةِ الوفيَّةِ ، فإن أردْتَ العفوَ عنهما ، أَعدْتُ إليهما الساعةَ خلْقَهما الأول .

فقال : وذلك ما أُريد .

فنظَرت الجنِّيةُ إليهما نظرةً طويلة ماحِقةً ، وتمتمت ثم تمتَمت ، فإذا الكلبتان إنسانتان جميلَتان فى جِسم رَفّاف ، ثم نظرَ إلى الفتاة المضروبةِ بالعَصا ، وأثر الضَّربِ لا يَزال بادِيًا على جِسمها ، وقال : وهل تَعرفِين مَنْ فعل بتلك هذا ؟

فقالت الجنِّيةُ : إنى أَعرفُه وهو مِنْك بمنزلةِ القَلبِ والنَّفسِ .

فقال ، ومَنْ يكونُ ؟

فقالت : ابنُك .

فَملكَ العَجبُ عليه حِسّه ولِسانَه فَترَةً غير طويلةٍ ، ثم أمر بإحضارِه ،

وزَوَّجه من فَتاتِه . وكانت الجنِّية قد مَسحَت بيدِها على جِسْمها ، فمحتْ آيةَ الضّربِ عنها .

ثم زَوَّجَ أبناء الملوك العور ، من الفَتياتِ الأَخواتِ الثلاث ، وجعل الفتاةَ التىأحضَرت البضاعة من سُوقِ المدينة زوجاً للحمّال، وعاشَ جميعهم فى نِعمَتِهِ وكنَفِه سالِمين .



قمر الزمان

(١)

شهرمان ملك عزيزُ الجانبِ ، مرهوبُ السلطان ، ذو حولٍ وطول، آتاه الله زينةً وأموالا ، فى دنيا مُلْكِهِ الواسع ، وعزّه العريض ؛ بلغ من الكِبَرِ عِتِيّا ، ولا يزال عقيما ؛ فلم يكن له وَلَدٌ ؛ وكان لذلك بئيسَ النفس ، شاردَ الذهن ؛ يخشى على مُلكه أنْ يُفلِتَ من بيته ، ولا يكون له عَقِبٌ يرثه من بعده ؛ فأنِسَ إلى أحد وزرائه ، وأطلعه على مَبْعَثِ حزنه.

فقال الوزير : استعن بالله واصبر ؛ إنّ الأرضَ لله ، يُورِثها من يشاء من عباده ، وربما تَجْزَعُ النفوسُ من أمر له فُرْجَةٌ كَحَلِّ العِقَالِ ، فقُمْ وتطهر ، وَصَلِّ ركعتين ، مُتَضَرِّعاً إلى اللهِ أنْ يَهَبَ لك غلاماً زكيا .

فعل شهرمان ذلك ، وصلّى لله ، ودعاه أن يهبَ له غلاما يَرِثُ مُلكَهُ

الواسعَ العريض ؛ فاستجاب اللهُ دعاءه ، ووضعتْ زَوْجُهُ ولدًا بَهِيّ الطلعةِ ، أضاء بمولده ما بين جوانح والديه ، فسماه قمر الزمان ، وَعُنِى بتَنْشِئته فى ظلالٍ وارفةٍ من التَّرَفِ العزيز ، ورعاية فذّة من تقويم الخلق ، وسلامة الفكر ، وقوة البيان .

ولما بلغ أشُدَّهُ ، وقطع خمسَ عشرةَ سنةً من عمره ، أجمعوا أمرهم على أن يُزَوِّجوه فعرض أبوه عليه هذا الأمر ، فأجاب قمرُ الزمان .

أيها الوالد العزيز ، لا يحملك فَرْطُ محبتك لى ، أنْ تَغْلُوَ فى إمْتَاعِى بما تريد من زينة الحياة الدنيا ، فقد عَدَتْ عيناى عن أيةِ زينةٍ تَشُوبُها شائبةٌ من تَنغيصٍ أو هَمٍّ ، ولقد خرجت النساء بالزواج عن الغرض السَّامى الذى شُرِع من أجله ؛ فإنَّ الأصلَ فيه أن يسكنَ الرجلُ إلى زَوْجه ، وأن يطمئنَّ فى بيته ، وأن يكون له أولادٌ يحفظون ذكره ، وأن يبقَى النَّوْعُ الإنسانىّ على الأرض ، وأن يتعارفَ الناسُ ويتعاطفوا وأن يتوادُّوا ويتحابُّوا ، أمَّا النساء فقد انصرفن عن تلك المعانى السامية التى أرادها الشَّارِعُ من تشريع الزواج بما كِدْن له من المكر العظيم ، والكيد الأليم ، ولهذا فقد عِفْتُهُ ، وَزَهِدْتُ فيه ، وعَجَّلْتُ إليك بهذا الرأى حتى لا تشْغَلَ نفسك بالتفكير فى هذا الأمر من أجلى .

فَتَلَطَّفَ والدُه وأمسك ، إشفاقا ورحمة ، وإنْ كان منقبضَ الصدر ، مُخْتَلِجَ الهم ، مكظُومَ الغيظ ، لهذا الإعراضِ الأبِىّ ، وعكف على هذا السكوت حولاً كاملا .

ثم دعاه إليه، وفى لينٍ من القول، تحدث إليه: — ألا تستجيب لأبيك، إذا دعاك لأمرٍ قد يكون فيه ما يعنيك أو يحييك؟!

فقال قمر الزمان: — كيف لا أستجيبُ لِدَعْوتِك، وقد فُرِضَت عَلَيَّ طاعتُك، وكُتِب خَفْضُ جناح الذل لك، من أجل حنانك ورحمتك؟! فقال أبوه، وقد دَبَّ فى نفسه دبيبُ الأمل، لتلك الإجابة السديدة التى تَنِمُّ عن نفسٍ بَرَّةٍ طَيِّبَةٍ: لقد أردتُ — وما أردتُ لك إلا الخير — أن أُزَوِّجك، وأجعلك على مُلْكى تصرفه بيمينك، لأنعمَ بك البقيةَ الباقية من حياتى.

فقال قمرُ الزمان: — لا تكلفنى ما لا طاقة لى به، ولا تحمِلْنى على العُقُوق بعصيانك فى أمر زواجى، واجعل لى من رحمتك وقايةً لى، بالكفِّ عن هذا الأمر؛ فقد قرأتُ فى كتب الأولين ما بَغَّضَه إلىَّ، وجعلنى أَطْعمُ السُّم الزعافَ ولا أَطْعَمُه؛ وذلك شأنى أضعُه بين يديك، فلا تُرْهِقْنى منه عَنَتاً وعُسرا.

فَأَسَرَّ والدُه فى نفسه همًّا فادحا ولم يُبْدِه له، وأحلّه من هذا الأمر تَلَطُّفًا به، وإشفاقا عليه، ثم هَمَّ إلى وزيره يستوْحى رَأْيه، فيما انتهيا إليه، ويستلهمُه وجهَ الصوابِ فيما هما فيه يختلفان.

فقال الوزير: أيّد الله الملك، وإنما الرأى منك وإليك، وخير ما أرى فى هذا الشأن، أن تترك ابنك سنة أخرى، ثم تعرض عليه أمر الزواج علانية، فى حضْرة الوزراء ورجالات الدولة، وإذ ذاك يتسلّط الخجل،

ويحكم الحياء ، فلا يجْرؤ على عصيانك ، فى حضرة من وزرائك ، ورجالات دولتك ، وتصل إلى رغبتك من أيسر السُّبُـل وأقومها . فاطمأنَّ الملك ، وقال : — أبقاك الله مُوَفقا فى رأيك ، سديدا فى قولك . ولَّى العام وأدْبر ، والتأمَ مجلس الملك الموقّر ، فقال لابنه وهو يعزه ويتحدّب عليه : — إنك تعلم أنى أحبك ، وأبغى الخير لك ؛ ولقد أردت أنْ تخلفنى فى مُلْـكى ، وتُريحَنى من أعبائه ، ففيك فتوة ، وفيك جَلد وقوة ، ولك بصر نافذ ، ورأى سديد . وعقل رشيد ؛ كما شُغِفْت بأن أنعم بزواجك فأطعْ رغبتى ، وانزلْ على إرادتى محوطا برعاية الله ورضوان أبيك ، وهؤلاء وزراء الدولة وكبراؤها يؤيدون رأيى ، ويرجون أن ينزل من نفسك منزلَ القبولِ والرضا .

فأطرق قمر الزمان قليلاً ، ثم رفع رأسه قائلاً : يا أبتاه ؛ لقد عرضتَ علىّ أمرَ الزواج مرتين ، فلم تجدْ منى إلا إعراضاً وصدًّا ، فأنت الآن كمَنْ يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وما هو ببالغه . أو كمن يستعيد اللبنَ دماً ، والشيخوخة صِبا ، فخل سبيلى ، ودعنى وشأنى ، ولا تخاطبنى فى أمر هذا الزواج .

عَصَفتْ فى رأس أبيه نخوةُ العزة ، وتَلَظَّتْ فى صدره سَوْرَة السلطان والإمرة ، وأذهله الغضبُ عما يُكنُّه لابنه من رحمة ، وأمر أن يُزجَّ به فى برج من أبراج قلعته المتيقة ، تنفيذاً لمشورة وزيره .

نصب رجال الملك لقمر الزمان سريراً فى قاعة مُظلمة من قلعته ، وكانت

فى عُبُوس الكهف ، وسُكون المقبرة ، وأوقدوا مصباحاً فيها ، وأودعوه إياها ، وقام على بابها حارس يحضر إليه الطعام ، ويقضى له بعض الشئون .

ولما دخلها قمر الزمان ، وتناول طعام العشاء . توضأ وصلّى ، ثم جلس على سريره ، وجعل يتلو كتابَ الله الكريم ، حتى غلبه النعاس ، فاستلقى على ظهره ونام .

كان بالقلعة بئرٌ عميقة ، تسكنها جِنّيةٌ تسمى ميمونة ، من أحقاب طويلة وهى بنت أحد ملوك الجان .

وفى الهزيع الثانى من الليل خرجتْ من البئر ، تجول فى الهواء كعادتها ، فأدهشها أن رأت أشعةً تَنِمُّ عن مصباح داخل القاعة ، فأسرعت إليها ، لتقف على ما حدث فيها ، فوجدت الحارس نائماً أمام بابها ، ووجدت قمر الزمان على سريره غارقاً فى نومه ، فوقفت أمامه شاخصةً إليه ، يأخذها جمالُه الباهر ، وما يكسوه من آيات النعمة والترف الزاهر ؛ وعجبت أن جاء به أهلُه إلى هذا المكان الخرِب الذى يُجلِّلهُ الظلام ، وتَشيعُ منه الوحشةُ والرعب آناء الليل والنهار ، وفَتَنَها جمالُ خَلْقِه ، وألقى فى قلبها محبةً إليه ، وتحدبا عليه فقالت :

تبارك اللهُ أحسنُ الخالقين ، لا تَثْريبَ عليك ، ولن يمسَّك ضُرٌّ ما دمتَ فى حِمايتى وضيافتى ، ثم قَبَّلته وطارتْ ؛ وما زالتْ ترتفع فى الجو حتى الْتَقَتْ بعفريت يسمى دهنش ، ففَزِع منها ، وأقبل عليها ضارعاً مستذلاً ، مُسْتَشْفِعاً بالاسم الأعظم ، والطِلَّسْم المنقوش على خاتم سليمان ،

أن ترفُق به ولا تَصُبَّ جام غضبِها عليه ، فإنه لم يَجْتَرِحْ خطيئةً ، ولم يقترفْ إثماً ، وكانت من الجِنّيات المؤمنات .

فسألته : أين كنت ؟

فقال : كنتُ فى آخر بلاد الصين ، وأتيتُك منها بنبإ يقين ، إنى وجدتُ لملك الجزائر التابعةِ لبلاد الصين ، بنتاً هى رمزُ الجمال ، وأعجوبة الزمان ، وأبوها ذو طَوْل قاهر ، وسلطان جائر ، شَيَّدَ قصوراً سبعة ، وجهزها بأفخر أثاث ورياش ، وجعلها كل دنياها ، تتنقل فيها تنقل الشمس فى أبراجها ، وتسبح سبح الكواكب فى أفلاكها ، وقد تهالكت الملوك على أبيها ، يطلبون يدها ، والزواجَ منها ، ولكنها تَصُدُّ صدًّا أبيًّا ، حتى أنذرتْ أن تَبْخَع نفسها ، وتخلُصَ من حياتها ، إن لم يُعرِضْ أبوها عن أمر زواجها ، فليست لها فيه حاجة ، ولا إليه منها رغبة .

ولكن أباها أغضبه إباؤها ، فحرم عليها القصورَ السبعة ، وحبسها فى بيت لا يؤنسها فيه إلا سبعُ عجائز يقُمن بخدمتها ، وأعلن لطالبى يدها أنها أصيبت بالعَتَه ، وحلَّ بعقلها البلَه ، فهى لذلك حبيسةُ الدار ، لا تتصل بديّار ، ولا نافخ نار ، وأنا أيتها الجِنِّيّة الجليلة ، أذهبُ إليها كل ليلة وهى نائمة ، فأستمتعُ برؤيتها وتقبيلها ، ولها منى كلُّ أمن وسلامة ، فلو تفضلتِ برؤيتها ، أُعْجِبتِ بها ورَضيتِ عنى .

فقالت : اخْسَأْ أيها العفريت الجاهل ، وهل فى الدنيا أجملُ من حبيبى ، ونور عينى ، وبهجة نفسى ، الذى اتخذ من برجى مقاماً . فحظىَ بحمايتى

وصونى ؟ ولقد علمتُ من أمر زواجه ، ما علمتَ أنتَ من أمر زواج فتاتك ، وكأنما اتفقا على النفور من الزواج وكراهيته ، فاتفق أبواهما الملكان على إعناتهما وبذل المساءة لهما .

فقال : وماذا عليكِ لو تفضلتِ وذهبتِ معى إلى فتاتى « بدور » ورأيت من جمالها العجبَ العجاب ، الذى لا يستطيع وصفه بيان ؟

فقالت : قسماً برب الظل والحرور ، إن لم تكن فتاتك « بدور » على نحو ما وصفتَ ، لأرجمنّك أو لأحرقنّك .

فقال : ولك ذلك .

فقالت: إن مكانَ حبيبى قريب منا، فانزل معى لأريَك من آيات جماله ، ما يبهرُك ويعقِدُ لسانَك، وقد لا نحتاج بعد ذلك ، إلى السفر لرؤية فتاتك .

فقال : لا شىء أحب إلى نفسى من طاعتك .

ونزلا إليه ، وما كشفتْ له عن وجهه حتى بُهِت وكُبِت ، وبعد لأىٍ قال : والله يا سيدتى ، إن صدق حَدسى ، فإننا لا نميز أحدَهما من الآخر إلا بما نميز الذكر من الأنثى ، فنظرتْ إليه على استهزاء وقالت : اذهبْ من فورك ، وأحضرها الساعةَ ، لترى أيهما أجمل ، واعلم أن حتفك فى إبطائك . فقال : سمعاً وطاعة ، ورجائى أن تصحبينى فى رحلتى ، لتقينى شر البلاء ، فرضيتْ بذلك .

وجاءا بالفتاة « بدور » ووضعاها نائمة بجانب قمر الزمان ، وجعل كلٌّ منهما ينتصر لرأيه ، فهذه تفضل قمرَ الزمان ، وهذا يُفضل « بدور » .

وانتهى الخلاف بهما إلى أن يختصما إلى حَكَمٍ يَفْصِل بينهما ، فضَرَبت الجِنِّيَّةُ الأرض برجلها ، فخرج منها عفريت أعور ، ذو سبعة قرون ، وأربع ذوائب ، يجررها على الأرض . وأظفار كأظفار الأسد ، ورجلين كرجلى الفيل ، فقبَّل الأرض بين يدى ميمونة ، وسألها حاجتها .

فقالت : يا قشقش ، إنما جئت بك الآن لتحكم بينى وبين العفريت دهنش ، وتلت عليه قضيتها ، فجعل قشقش يُصَوِّبُ نظرَه فيهما ويُصَعِّده ، ثم التفت قائلا : إن الفرق بينهما كالفرق بين المرأة وصورتها فى المرآة ، والرأى عندى أن نوقظهما ، أحدهما بعد الآخر ، وننظرَ ماذا يصنعان ، فمَنْ كان أكثرَ شغفاً بالآخر ، كان دونه جمالا ، فنزلا على هذا الرأى .

انقلب دهنش برغوثاً ، ولسع قمر الزمان فى رقبته ، فاستيقظ ؛ فألفى بجانبه فتاة تشعّ سحراً وفِتنة ، فجرى دمُه فى دهشة وحَيرة . وأسف وحسرة ؛ وقال : ثلاث سنين دنّسْت فيها خُلُقى بعصيان أبى ، وخسرت فيها مُتعتى ، وأضعت بين الوزراء والكبراء كرامة والدى ، وأعلنتُ بينهم عُقوقى ، وضَعْفَ عقلى ، وسيّئَ خُلقى ، ولا بد أن تكون هذه الحورية ، الزوجةَ التى ارتضاها لى أبى ، وأراد أن يُرِيَنى مقدار حبه إياى ، وشفقته بى ، وفسادَ وجهتى ، وباطلَ خطتى ، وشر الخروج عن طاعة والدى ، فحبسنى فى هذا المكان ، وجاء بهذه الفتاة التى ارتضاها لى زوجاً ، عسى أن يَثُوب إلىّ رشدى ، ويرجع صوابى ، وأنزلَ على رأيه مختاراً



راضياً، وإن شاء الله لا ينشقُّ هذا الليل عن فجره ، حتى أرجوَ المثولَ بين يدى والدى ، ضارعاً إليه أن يغفر لى خطيئتى ، ويسعدنى بالزواج من هذه الفتاة ، التى إنْ لم أخْطُبها ، فقد ذهبتْ نفسى حسراتٍ عليها ؛ ولن أكونَ معها فى هذه الخلوة إلا رجلا كريماً نبيلا ، حتى لا تعظم جريمتى ، فقد نكون الآن على مَرْأًى من والدى ، يُحصى علىَّ ما أفعله ، ثم يحاسبنى حساباً عسيراً ؛ ومدَّ يده إلى خاتم فى إصبعها فنزعه ، ووضعه فى إصبعه ، وأدار إليها ظهره ، وأسلم إلى النوم نفسه .

ولما أخذ مكانه من فراشه وأغمض عينيه . انقلبت ميمونةُ برغوثاً ، ولسعت (بدور) فى عنقها ، فهبَّت من نومها ، فوجدتْ هذا الفتى بجوارها ، وما كشفت عن وجهه ، حتى فَنِيَت فيه ، وتهالكتْ عليه وجعلت تُقَلِّبه ذات اليمين وذات الشمال ، لتسعدَ به ، وتنعمَ بحبه ، وتأخذَ منه عهداً أنها له ، وتعقدَ رباطاً وثيقاً بينها وبينه ، وندمت على ما فرَط من إعراضها ، إذ ظنَّت أنه ذلك الذى كان يُريدها من أبيها ، ولما لمحت خاتمها فى إصبعه ، انبعث الأملُ فى نفسها ، وأحبَّت أن تنالَ منه شيئاً يكون مَبعثَ سرورها ، ووشيجةً بينه وبينها ، فنزعت خاتمه من إصبعه ، ووضعتْه فى إصبعها ، وكأنها بذلك حصلتْ على خاتَم سليمان ، تُسخِّر به كلَّ كائن ، وتحكمُ بما تشاء ، لا مُعقِّبَ لحكمها ، ولا رادّ لقولها ، وكانت قد استيأستْ من إيقاظه ، لأن الجِنِّيَّةَ أثقلت نوْمَه ، فأرجأته إلى حين ، واحتضنته ونامتْ ، فأخذتها سِنَةٌ أسلمتها إلى نوم عميق .

فرحت (ميمونة) بفوزها ، فالتفتتْ إلى دهنش قائلة : لقد رأيت من عِفّة حبيبى ، وتَهالك فتاتِك ما رأيتَ ؛ ولكنى عفوتُ عنك ، لجواز أن يكون شَغَفُك بها ، أعْمَى بصيرتَك عن وجه الصواب فى قضيتنا ، وأمرت (قشقش) أن يساعدَه فى نقل فتاته إلى بيته ، فقد أوشك الصبحُ أن يُسفر ، وترك جميعُهم قمر الزمان نائما ، ومضى كلٌّ إلى شأنه

(٢)

طلع الفجر وانتبه قمرُ الزمان ، فالتفتَ يَمنةً ، والتفت يَسْرة ، وجال ببصره فى أنحاء القاعة ، على ضوء المصباح ، لعله يجد الفتاةَ التى كانت بجانبه ، ولكنه لم يجِد شيئاً ؛ فساقه الحدْسُ إلى أن والدَه أحضرها . ثم أخذها ، ليُرَغِّبَه فى الزواج ، ولا يعودُ إلى سالف نفوره .

أخفى حَيرَته ، ونهض فقضى حاجتَه ، وتوضّأَ وصلى ، وقرأ ما تيسَّرَ له من آى الذكر الحكيم . ثم نادى الحارسُ ، وسأله عن الفتاة ، فقال : أيّةُ فتاةٍ يا سيدى ؟ فقال : الفتاةُ التى كانت نائمةً بجانبى ، على سريرى هذا . طولَ الليل ، فقال : إن البابَ مُقْفل ، وأنا نائم أمامه ، وأنت الذى فتحْتَه بيدك ، بعد نُهوضِك . فكيف دخلتْ فتاةٌ عليك ، ونامت بجوارك ؟ لعلّ ذلك رُؤيا واضحة وضوحَ فلَقِ الصبح خِلْتها حقيقة واقعة

فضرب كفًّا بكَفّ وقال : حتى الخادم يلبس على سيده الوقائع ، ويُدخلُ فى نفسى ريبًا فيما رأيتُه بعينى ، ولمستُه بيدى ! ! وربِّ السماء

والأرضِ لأُعَذِّبَنَّك عذاباً شديداً ، أو لأقتُلَنَّك ، أو لَتأتِيَنِّى بنبأ هذه الفتاة .

ووجدَ الخادمُ فى قوله صدقَ العزم ، ويقينَ التنفيذ ، فاعتصم بالكذب ليَفرَّ به من بين يديه إلى أبيه ، فقال : أتسمحُ لى يا سيدى أن أُؤدِّىَ فريضةَ الصبح ، وأقضىَ حق الله ، ثم أجلس بين يديك فأَقُصَّ عليك من أمر الفتاة كلَّ ما رأيت ؟ فقال : لك ذلك ، فاذهبْ وائتنى على عَجل .

وما كادَ الخادم يعطى القاعةَ ظهره ، حتى أَسْلم إلى الريح ساقيه ، وما هى إلا غمضة عين حتى كان بحضْرةِ الملِك مبهوراً ، يتملْملُ خوفاً وفزعاً. فقال الملك : تكلَّم ! ماذا جرى لابنى حتى جئتنى على هذه الحال الرهيبة ؟ تكلَّم !

فقال : يَبدُو لى أن سيدى قمرَ الزمان ، قد أصابه فى هذا المكان الموحِش مسٌّ من الجنون .

فقال الملك : وكيف عرفتَ ذلك ؟

فقصَّ عليه الخادم قصَصَه .

فالتفتَ الملكُ إلى وزيره ، وكان جالسا معه ، وقال فى حِدَّةٍ من الغَضب : هذا رأيُك الذى قضيْتَ به على ولَدى ، قُم الآن إليه ، وائتنى بنبأ يقين ، فخرج الوزير وهو مُشرَّد الذهن ، ذاهب القلب ، يتعثَّر فى أذيال خوفه ، حتى كان فى حَضرةِ قمر الزمان ، وبعد أن حيَّا وسلَّم ، قال : لقد أخبرَنا الخادم أنك أنذرْتَهُ عذابا قريبا ، أو قتلاً رهيبا ، إن لم يذكر

لك ما يعرفه عن الفتاة التى نامت هذه الليلة بجوارك ، وقد جئتُ إليك لأُنَبِّئَك أن شيئاً من ذلك لم يكن .

فقال قمرُ الزمان : لئن سوَّلَتْ للخادم وضاعةُ نفسه أن يكذب ، فكيف يَسُوغُ للوزير أن يُجارىَ الخادمَ فى كذبه ، ومَهانَةِ نفسه ، إن هذا لَهُو الإثمُ المبين .

وهمَّ بالوزير أن يضربه ، فلجأ إلى الحيلة . ليُنجِّىَ نفسه وقال : أتُريد تلك الفتاة نفسها ؟

فقال : نعم وأَخْبِرْ أبى الآن أنِّى أطعته ، وأبغى الزواجَ من هذه الفتاة عينها .

فوجد الوزيرُ فى قوله هذا مَنْجَاةً له ومخلصا ، فقال : الحمد لله الذى وفَّقكَ إلى طاعة أبيك ، وسأُبشِّره الآن بهذا النبأ العظيم ، ليحقِّق بُغيةً طالما تمنَّاها ، لولا إعراضُك وصدُّك ، فقال : قم الآن إلى أبى ، على أن ترجع بما استقرَّ عليه رأيُه .

وكان الوزير فى حضرة مليكه ، فأخبره أن قد أصابه مَسٌّ من الجنون ، فَقَفَّ شعرُ رأسه من هول ما سمع ، وقال : ومن سَوَّى ابنى بشَرًا سَوِيًا ، لئن أُصيب بمكروه فى نفسه أو بدنه ، لأَضربنَّ عُنقَك ، على ملإٍ من الناس ، حتى تكونَ عِبرةً لأُولى الأبصار ، فهذه آراؤُك فى ابنى ، حمَلْتنى عليها فلم نجْنِ منها إلا الضرَّ والأذى ، ونهض الملك قائما ، وذهب إلى ابنه فى قاعته ، ووزيره فى صُحبته ، فاستقبلهما استقبالا كريما ، يفيضُ

أدباً وطاعة ، وإعظاما وتَجِلّة ، وتَبْصِرة وحكمة ، وأجلَس الملك ابنه على سريره بجانبه ، وجعل يتلطّفُ في القول ويسأله :

لعل حَجْزَكَ في هذا المكان المُظلم المتقطع ، أنساكَ الأيّام وذَهابها ، فلا تعرف اليومَ من غَدِه وأَمْسِه .

فقال قمر الزمان : حاش لله أن أكون من الجاهلين ، إن يومَنا هذا كذا وغدا كذا ، ونحن في شهر كذا ، يتلوه شهر كذا ، وجعل يذكر الأيام بأسمائها والشهورَ بأعلامها ، ولم يُخطِئْ في شيء مما يقول .

فنظر الملك إلى وزيره نظرةَ شَزْراء ، أَلْهبَتْ جَوانحه ، وأطارت لُبّه ، ثم التفتَ إلى ابنه قائلا : وما رأيُك في هذه الفتاة التي زَعَمْتَ أنها باتَتْ ليلةً بجِوَارِكَ ؟ فقال : كلُّ ما سمعتَه عنها حقٌّ لا مِراء فيه .

فقال والده : ربّما كان ذلك حلما بلغ من وضوحه في نفسك مَبْلَغ الحقيقة ، فخِلْتَه أمرا واقعا لا ريب فيه ؟

فقال قمر الزمان : هل سمعتَ أن أحداً رأى في منامه أنه يُقاتل بسيفه ، ثم استيقظ فوجد سيفه مُلَوَّثا بالدماء ؟

فقال والده : ذلك ما لا يكون .

فقال قمر الزمان : ولقد حصل من أمر الفتاة كلُّ ما وصل إلى علمك في اليقظة ، وحُجّتي في صِدْق ما بلَغَك أني أخذت خاتَمها ، وأخَذتْ منى خاتمي ؛ وها هو ذا خاتَمُها في إصبعي ، ومد يده إلى أبيه ، فألفى خاتمها في خنصره فقال :

لقد وقفتُ الآن على صحَّةِ قضيَّتك، وسلامةِ عقلك ، وإنها لعَجيبةٌ لا نستطيع لها تأويلا ، وليس لنا إلا أنْ ندَعَها لله رب العالمين . الذى لا يُجَلِّيها لوقتها إلا هو .

وبعد سَكْتة قصيرة قال قمر الزمان : وإنى أَبُثُّكَ ما فى نفسى ، وأُعلن فى صراحةٍ من القول : أَنَّ قلبى قد تعلَّق بها ، وارتبطت حياتى بوجودها ، فإمَّا جِئْتَنى بها ، وإلا فقد حقَّ عَلَيَّ الشقاء ، الذى قد ينتهى بى إلى عاجل الفَناء .

فقال الوزير : يحسُن أيها الملك أن تنقلَ قمر الزمان إلى قصرك المُطِلِّ على البحر ، وتَعتكفَ على صُحْبته وإيناسه ، وتجعلَ له يومين فى الأسبوع للإشراف على شئون ملكك ، حتى يأذنَ الله بفرج من عنده ، ويهدينا إلى السبيل السَّوِيِّ ، فى هذا الشأن الجليل .

وعاش قمر الزمان فى القصر مع أبيه ، عِيشةَ تفكير وقلق ، وضعف ونُحول ، واضطراب وذهول ، ودَبَّ فى جسمه الهُزال ، وفى قوته الانحلال ، فأصبح نهوضُه كنهوضِ الكسيح ، لا يقوم إلاّ ليقع ، فأسلَمَ إلى الفراش جَنْبَه ، وأَغمضَ عينيه .

(٣)

طلع النهارُ ، وهبّت بُدورُ من نومها ، فلم تُلْفِ الفتى بجانبها ، فنظرت فى حجرتها نظرةً فاحصة ، هنا وهناك ، فلم تجدْ له أثراً — وكان قد أذهلها

جماله ، وقتَ أنْ كانت بجانبه ، فحبس حِسَّها عليه ، فلم تشعر أنها فى غير حجرتها ، وأنها على سرير غيرِ سريرها — أتنكر حِسَّها ، وتكذب عينها ، وهذا خاتَمه يتألق فى خنصرها ؟ ! ! فصرخت صرخة مُدَوِّية ، أفزعت العجائز ، فأهرعْن إليها ، وأحطْن بها ، فهذه تمسك إحدى يديها ؛ وتلك تمسك يدها الأُخرى ؛ وثالثة تمسح على إحدى رجليها ، ورابعة تمسح على رجلها الأُخرى ؛ وهذه تربتُ على صدرها ؛ وتلك تسند رأسها ؛ أما كبراهنّ فقد جعلت تدعو لها بالسلامة ، وتُذهب رَوْعها ، وتُهدِّئ بالها ، ثم قالت السيدة بُدور :

إليكُنَّ عنى ، أين الفتى الذى كان نائماً بجوارى ، وهذا خاتَمه فى خنصرى ؟ !

فقالت العجوز : سلَّمك الله من كلّ شر ، ما دخل أحدٌ هــذه الحجرة أبداً .

فقالت : كبرت سنُّك ، وأشرفت على آخرتك وتكذبين ! وقامت إلى سيفها ، وأطارت به رأس العجوز ، ففزعت بقية العجائز ، وطِرْن إلى أبيها ، وأخبرنه ما كان من أمر ابنته ، وقتلها كُبراهن ، فخفَّ إليها ، وألفاها مُصرَّة على قولها ، وكان من ضعف الملاحظة ، وجُمود البديهة ، والتسرع فى الحكم ، بحيث أيْقَن أنها مُخْتلَّة ، فأمر أن تُربط فى سلسلة إلى شباك بالحجرة ، حتى يأمنوا شرها

وعزَّ عليه أن يتركها على هذه الحال ، فأمر أن يَحْضُر المنجّمون

والحكماء ، ليقوموا بعلاجها ، وإبرائها مما أصابها ، وجعل لمن يكون بُرؤها على يديه ، زواجَه منها ، وإقطاعَه جزءاً من ملكه ، يكون والياً عليه ، وصاحبَ الأمر النافذِ فيه ، ومن حاوَل شفاءها ولم يُوفَّق ضُرب عُنُقه ، وعُلق رأسُه فى الساحة العامة ، أمام قصره .

وأطاح فى سبيل ذلك بأربعين رأساً ، وبنته لا تزال فى اضطراب من حالها ، وشذوذٍ من أمرها ، وبكاء مرير أغلب وقتها ؛ ثلاث سنين دَأْباً ، وما رَقأَ لها جَفن ، ولا استقرت بها حال .

وكان لها أخ من الرضاع يُسمى مرزُوان ، يحبّها محبة أُخُوَّة شفيقة ، ويعطف عليها عطفاً بريئاً ؛ غاب عنها فى أسفاره وتَجواله مدة طويلة ؛ ولما حضر سأل أمه عنها فأخبرته مَصيرها ، وما هى فيه من بُؤْس الحال ، ولزوم الدار ، وبلبلة القلب ، واختلال اللب ؛ فرغب فى لُقياها ، عسى أن يجدَ عنده ما يُنجيها من بَلواها ، فعمدت أُمُّه إلى حيلة تُمَكِّنُه من الوصول إليها ، فألبَسَتْهُ ثيابَ فتاة ، وكان ممشوق القَوام ، لم يَخُطّ له شارب ؛ وذهبت به إلى القصر الذى هى فيه ، وقالت للخدم :

هذه ابنتى ، نُشِّئَتْ مع السيدة بُدور ، وترغب فى زيارتها ، ثم ترجع لساعتها ، فإذا مَنَنْتُم بذلك عليها ، كان لكم عند الله خيرُ الجزاء .

فقالوا : ليكن ذلك فى الليل بعد أن يغادرها الملك إلى مضجعه .

ولما جاء الليل ذهبت به إلى القصر ، ودخلتا على السيدة بدور ، وهناك عرّفها بنفسه ، فعرفته ، وأنست به ، وقصّت عليه قصّتها ، فقال لها :

لا تجزعى واصبرى . وسأخرج من عندك باحثاً فى كلِّ مكان ، جائلًا فى كل بلد ، حتى آتيك بهذا الفتى ، إن شاء الله تعالى . فشكرت له حَدَبه عليها ، واهتمامه بشأنها .

(٤)

ركب مرزوان كل سبيل ، ودخل كل مدينة ، وأمَّ كلَّ مكان ، حتى كان بمدينة طيْرب ، وهناك سمع عن قمر الزمان وما أصابه ، فسأل عن بلده ، فقيل جزيرة خالدان ، و بينك و بينها مَسيرةُ شهر فى البحر ، فركب إليها المركَب مع المسافرين ، وما كاد يُشرف على الجزيرة ، حتى هبَّتْ ريحٌ عاصفةٌ ، فهاج البحر وماج ، وابتلع المركبَ بمن فيه ، ولكن مرزوان استطاع بِقُوَّتِهِ ، وقدرته على السباحة ، أن يصارع الموجَ ، آخذاً سمتَه إلى القصر الذى فيه قمر الزمان ، فجعل يكدّ ويدْأب ، ويغطس ويطفو ، حتى أشرف على القصر ، فى حال تتفجَّر لها القلوبُ رحمةً .

رآه الملك والوزير وهو يغالب الموجَ ، والموجُ يغالبه ، فأشفقا عليه ، وأسرَّ الوزير إلى الملك أن ينزل إلى الشاطىء ، ويأمرَ بإنقاذه ، عسى أن يجعل الله الخير على يده ، لقاء تنجيته فقال الملك : ذلك واجبٌ ، وإن لم يكن لنا عنده حاجة .

وخرج الشابُّ من البحر فى حالةِ إعْياء وذُهُول ، فأسعفه الوزير وألبسه ثياباً أخرى ، وعِمامةً من عمائم غِلْمانه ، وأطعمه وسقاه . ثم قال له

لقد كنتُ سبباً فى نجاتك ، فلا تكنْ سبباً فى هلاكى ؛ وحكى له ما كان من أمر قمر الزمان ، ووصّاه أن يجانِبَ اللَّغْوَ ، وألاَّ يَقفُوَ ما ليس له به علم ، حتى يخرج من هذا القصر سالماً ، فشكر له مرزوان جميل عطفه ، وقال فى نفسه :

هذه أُمْنِيَّتى ، ساقنى إليها ربى .

ثم قام الوزيرُ إلى مجلسه من الملك وابنه ، وما كاد يجلس حتى رأى مرزوان واقفاً بجانب قمرِ الزمان يُحَدِّقُ فيه النظر ، ذاهباً جائياً ، فاشْتعل قلبُ الوزيرِ غيظاً ، وجعل يطردُه بنظراته ، فلم يلتفتْ مرزوانُ إليه وقال :

سبحان بارئ النَّسَم ! !

سبحان من ليس كمثله شىء ! !

سبحان من أنشأهما فسوّاهما مُتشابِهَيْن ، فجعل قَدَّهُ مثل قَدِّها ، ووَجهَه كوجهها ، ولَوْنَه مثلَ لوْنِها ! !

فلوى قمر الزمان وجهَه إلى مَصْدرِ هذا القول ، وشخَص ببصره إليه ؛ وفى صوتٍ خافت لا يكاد يُبِين ، رجا من والده أن يُجلِسَ هذا الشابَّ بجانبه ، فاستحال غضبُ الجالسين على مرزوانَ رضواناً وغِبطة ، وكاد الملكُ يحتَضِنُه إلى صدره ، وأجلسه حيث أراد قمرُ الزمان ؛ فأسرَّ مرزوانُ فى أُذُنِه : أنِ ابْعثْ فى نفسك راقدَ الأمل ، واعتصمْ بعزْمِ الشباب ، وصبرِ البطولة ؛ فإنَّ حالَها من أجلك حالُك ، وأمرَها لغيابك أمرُك ، ولم

تستطعْ على فِراقك صبرا ، فثارتْ في بيت أبيها ثورةٌ خطيرة ، وهى الآن مُوثقةٌ بسلسلةٍ حديديّة فى شُبّاك حُجرتها ، ولا يَفُكّها من أغلال ثورتها وبؤسها وسجنها إلا لُقياك ، وسيكون هذا على يدى بفضل الله وعونه .

فترقرق وجهُ قمر الزمان حياةً وبهجة ، وتحركتْ أعضاؤه من سكون ونشِطت من خمود . وقال فى بيان واضح :

أجلسونى بجوار هذا الفتى العزيز ، وما كاد يجلسُ حتى التفّ مرزوانَ بذراعه ، وضمه إلى صدره ، وقبّله ، فازداد مرزوانُ فى نَفْسِ الملِك عِزّةً ومحبّة ، وحلّ فى نفْسه محل الغاية من الحياة . وقال له : لقد وجدنا فى طَلعتِك بَرْدَ السرور ، ونَشْوةَ العافية ، فاهْنأ بمُقامك فينا . فأنت أعزُّ مَنْ يحتويهم قصرى . وكان وقتُ العَشاء قد حان ، فأمر بإطعامه وإكرامه

وجاءت المائدةُ فتوسطت الشابّين ، وطعِما هنيئاً ؛ وشربا مريئاً ؟ فعمّ الفرحُ القصرَ حتى أصبح أشبهَ شيء بأعشاش الربيع ، كلّها مُناغاة وهديل وهَزَج .

بات الملك معهما فى حجرتهما ، سروراً بهما ، ولما تجلّى النهارُ وخلا بهما مكانهما ، جعل مرزوانُ يُحدّثه عن بدور ؛ وكيف أنها لم تُطِقْ صبراً على فراقه ؛ وكيف زارها ، ووعدها أن يجمع بينهما ؛ وكيف خاطر بحياته فى سبيل ذلك ؛ وحبّب إليه أن ينشَط من عقال هزاله ، ويفرّ من ضيق ضعفه ، باللعب والمرح ، والطعام والشراب ، حتى يُصبح مشْبوبَ العزم ،

شديدَ المُنَّة ، قوىَّ الجَلَد ، ثابتَ الجنان . فيكونَ له من كل أولئك زادٌ للسفر ، وعُدّةٌ للرحيل ؛ وذلك قد كان .

عزم مرزوان على الرحيل . فقال لقمر الزمان : استأذنْ والدك أن تغيبَ عنه ليلةً واحدةً ، للصيد فى البرِّيَّة . وخذ معك من المال والزاد ، ودوابِّ الحمل والسفر ما يكفينا مَسيرة ثلاثةِ أشهر ، فاستأذنه فأذِن له ، بعد أن أكّد موثقَ عودته . وعدمَ غيابه أكثر من ليلة واحدة .

وخرجا راكبَيْن فرسَيْن ، ومعهما جَمَلان ؛ أما أحدُهما فإنه يحمل مالاً ، وأما الآخر فإنه يحمل ماء ، ودام بهما الرحيلُ يومين .

وفى مكان فسيح ، تُشرف عليه أَجَمةٌ كثَّة (الأشجار) تبوَّءا منزلا فيه ، يأكلان ويستريحان ، وقام مرزوان ، فذبح جملاً ، ومزَّقه إرْباً إرْباً ، وقطَّع ثياباً له ، وثياباً لقمر الزمان ، ولوثها بالدماء ، ورماها فى الخلاء ؛ ولما سأله قمر الزمان عن ذلك قال : إن أباك ستثقل عليه غَيْبَتُنا ، ويَستَبْطِئُ عودتَنا ، فيجدُّ فى طلبنا ، مُقْتَفِياً آثارَنا ، حتى إذا ما وصل إلى هذا المكان ، ورأى آثارَنا هذه فيه ، علم أن وَحْشاً طلع علينا ، ففتك بنا ، وحينئذ ينقطع رجاؤه فينا ، فلا يَتْبَعُنا ، ويعوقُ سيرَنا ، ويحُولُ بيننا وبين الوصول إلى فتاتِك بدور .

فقال : حسنا فعلت ؛ ولا حرمنا الله سديدَ رأيك ، وعظيمَ عَونِك . وبعد أن استَوفَيا حَظَّهما من الراحة ، جَدَّا فى السير ، حتى انتهى بهما إلى مدينة مُشرِفةٍ على بحرٍ من ورائه جزيرةُ المَلِكِ والدِ بدور ، وعلى شاطئه

حاضرةُ مُلْكِه : فباعا ما معهما من دواب ، وأخذا ما خفَّ حَمْلُه من مال ومتاع ، واستقلَّا مركبًا إلى المدينة . وهناك نزَلا فى خان منها ثلاثة أيام ، وفى أثنائها أفهمه مرزوانُ أن والدَ حبيبته بدور جعل لمن يَشفيها ، زواجَه منها ، وإقطاعه جزءاً من مُلكه ، وأنت ستختفى فى زِىّ مُنجّمٍ ، وتذهبُ إليها ، لتُبْرِئها — بحكمتك — من عِلّتِها فإذا ما شعرتْ أنك أنت حبيبُها ، ذهب عنها كلُّ مكروه ، ووصلْتَ إلى بُغيَتِك .

فقال : وإنى لك شاكرٌ ومُطيع .

(٥)

لبس قمرُ الزمان ثيابَ المنجّمين ، وحمل معه كتاباً وقراطيس ومِحبرة وبعضاً من الرمل ، فى كيس ؛ وجعل يدور حول القصر منادياً :

« أنا المنجّم الحاسب ، أقرّب المَطَالب ، وأُحَقّق الرّغائب ، وأُظهر العجائب ، فأين الطالب ؟ . »

وما كاد الناسُ يطرُق آذانَهم نداؤُه ، وقد طال عهدُهم باختفاء المنجّمين ، حتى حفُّوا من حوله ، يحذّرونه المصيرَ الأليمَ ، ويُنذرونه القتلَ المحتومَ ، ويقولون له ، هذه رءوسُ رجالٍ فعلوا فعلتك ، فأعْرِضْ عن هذا ، ولا تُلْقِ بيدَيكَ إلى التَّهلكة ، فإنك لا محالةَ من الهالكين ، وخير لك أن تنجوَ بحياتك ؛ فما زاده ذلك إلا إصراراً ونداء .

« أنا المنجم الحاسبُ ، أقرّب المطالبَ ، وأُحقق الرغائبَ ، وأُظهر

العجائبَ ، فأين الطالبُ ؟ أين الطالبُ ؟

سمع الملكُ هذا النداء ، فأمر أن يحضرَ صاحبه ، فلما رآه بهره جمالُه ، ورغب أن يُبقيَ عليه ، فقال : إن لم تُبرئها قتلتُك ، وليس لك من شفيع يُطاع ، فلا تظلمْ نفسك ، ولا تسعَ إلى حتْفك ؛ فقال قمر الزمان : أشهدْ عليَّ مَنْ تريد ، فإنى واثقٌ بنفسى ، والله نصيرى وعونى .

أخذ الخدم قمرَ الزمان ، وأوقفوه أمامَ الباب ، وخلفَ الستارة ، فقال قمر الزمان ! أى الأمرَيْن أحبُّ إليكم : أشفى سيدتكم وأنا فى مكانى هذا ، أم أدخل عليها وأشفيها ؟ فدهش الخدم ، وقالوا : نظن أن أفضل الأمْرَين فى إظهار براعتك ؛ أن تُبرئها دونَ أن تراها ؛ فجلس قمرُ الزمان وكتب فى القرطاس :

« سلامى إلى حبيبتى السيدة بدور ، أنا حبيبك قمر الزمان ، صاحبُ الليلةِ السعيدة ، التى ضمَّنا فيها فِراشٌ واحد ، ثم فرّقت بيننا الأيام ، وهذا خاتمُك آيةُ صدق ، وشاهدُ معرفتى . »

ثم طوى القرطاسَ ، بعد أن وضع فيه خاتمَها ، وقال لأحد الخدمِ : ناولْ سيدتك هذا .

وما قرأته بدور ، ورأتْ خاتمَها ، حتى فار جسمُها حياةً وقوةً ، وشعَّ بهجةً ومسرةً ، ففكت أغلالها وجَرت إليه فى مكانه ، وألقتْ بنفسها فى أحضانه .

خفَّ أحدُ الخدم إلى الملك ، فقبَّل الأرضَ بين يديه ، ونورُ الفرح

يشع من عينيه وقال : إن هذا المنجِّم يا مولاىَ أعلم من فى الأرض من المنجمين ، فقد شفى سيدتى ، وهو خلف الستارة ، دون أن يدخل عليها ، وإن أردت أن تَسْتوثق من قولى ، فتفضلْ إليها ، وستجدُها جالسةً بين يديه ، تتحدثُ فى سرور إليه .

فلما رآها أبوها جالسةً تتحدثُ إلى قمر الزمان فى عافيةٍ ، فرح بها ، وقبَّلها بين عينيها ، وقال : لقد منَّ الله علينا بهذا المنجّم الخبير ، وكم كنت آسفاً على شبابه وجماله ، لو أنه خاب سعيُه وقتلته ، ثم سأله :

من أنت ؟ ومن أى البلاد جئت ؟

فقال : أنا قمر الزمان بن الملك شهرمان ، وسأقصُّ عليك قصصَنا ، جعل يقص عليه من أنبائه وأنباء ابنته بدور العجب العجاب .

فأحضر الملك القضاةَ والشهودَ ، وزوجَه من ابنته ، وأقام الأفراح فى أنحاء المدينةِ ، سبعَ ليال وثمانيةَ أيام سويًّا ، وأقام معها فى قصرها يتفيآن من النعيم ظلاًّ ظليلا .

ثم أمر الملك بإحضار مرزوانَ ، أخى ابنته من الرضاع ، فشكروا له نعمته ومنحوه مالا كثيراً ، وودعوه فى حفاوة وتجِلّةٍ ، وتركوه يذهبُ إلى أمّه التى لم يرها من زمان .

وبعد شهر من زواجه أو يزيد ، رأى قمرُ الزمان فى المنام ، أن والدَه كاسفُ الوجه ، هزيلُ الجسم ، منكفئُ اللون ، يكاد من الوهْن والهمِّ يخرُّ صريعاً ليديه وفمه ، ويتحدث إليه مخفوضَ الجناح من رحمته ، عاتباً



عليه فعلته معه ، وهَجْرَه إياه ؛ فقام من نومه فى أنَّات السقيم ، وخَلجات الجناحِ المهيضِ ، وقصَّ على زوجه رؤياه ، فاتفقا على السفر إلى أبيه ، واستأذنا فى ذلك الملك ، فأذن لهما على أن يعودا إليه بعد سنة كاملة .

وهَيَّأ لهما كل ما يحتاجان إليه ، وأمدَّهما بمال وفيرٍ وأعاطٍ من الخدم والأعوان ، وسار جميعُهم قرابة شهرٍ ، حتى نزلوا بمَرج فسيح ، فضربوا فيه خيامهم ليأخذوا قِسْطهم من الراحةِ .

وذات يوم دخل قمرُ الزمان على زوجه فى قُبَّتها ، فألفى حول خَصرها نطاقاً ، استهواه جماله الباهرُ ، فحلَّه فوجد ثناياه قد خِيطَتْ على فَصٍّ أحمرِ اللون وعليه نقشٌ لا يقرأ ، فأعجبه شكله ، وقلبه فى ضوء الشمس ليتبينه ، وبينما هو يقلِّبُه فى كفِّه ، ويتأمّله ، إذ انقضّ عليه طائر ، فخطفه وطار به ، فجرى قمرُ الزمان وراءه ، ولكن الطائرَ كان يطير ثم يحط ، بالقدر الذى يُطمِعُه فى اللحاقِ به ، وما زال الطائرُ يطيرُ ، وقمرُ الزمان من خلفه ، حتى جنَّ الليلُ ، وأعياه الجرى ، فحطّ الطائر على شجره ، ورأى قمرُ الزمان أنه لا يستطيع العودةَ ، فنام تحتها ، ولما طلع النهارُ استأنف الطائرُ طيره ، على قدر مشى قمر الزمان فى طلبه ، إذ عاقه تعبُ اليوم السابق عن الجرى ، فعجب من ذلك الطائر الذى يطيرُ ويتثاقل ، ويسرعُ ويحطُّ ، على قدر ما يجرى هو ويمشى ويجلس ؛ فاستمر فى متابعته ، حتى يقف على ما خفى من أمره .

وبعد بضعة أيام أشرفا على مدينةٍ ؛ فمرّ الطائر من فوقها مرور السهم ،

وغاب عن ناظريه ، فدخل قمرُ الزمان المدينة من باب البحر ، وما زال سائراً لا يلقاه فيها إنس ولا جان ، حتى خرج منها دالفاً من باب البحر ، إلى بستان تجمَّعتْ فيه محاسنُ الربيع ؛ فوقف على بابه ، ولما رآه البستانيُّ أذن له بالدخول سريعاً ، قبل أن يراه أحد من أهل تلك المدينة ، وبعد أن حياه ، حمد له اللهَ الذى نجاه من تلك المدينة الظالم أهلُها الذين مجسوا وأشركوا ، ثم استنبأه كيف وصل إليه ؛ فأعلمه ما جرى له ، حتى كان فى حضرته .

حنا عليه البستانىُّ ، ورثى لحاله ، وقال : إن بينَك وبينَ بلاد الإسلام مسافاتٍ بعيدةً ، ولا يُقلِع إليها من هذا المكان إلاَّ مركبٌ كل سنةٍ ، ومن الخير لك يا بنىَّ أن تقيمَ معى ، تزاول بعض الأعمال التى لا تنوء بها فى هذا البستانِ ، على أن تسافرَ فى أول مركب يبرحُه إلى موطنِ المسلمين ؛ وهناك يكفُلك اللهُ ويرعاك ؛ فلم يرَ قمرُ الزمان مفرًّا من أن يرضى صابراً مستعيناً بربه .

(٦)

نهضتْ بدورُ من مَرْقدها ، وطار النومُ عن عينيها ، فلم تجدْ نطاقَها حولَ خَصرها ، وعثرت يدُها عليه بجانبها ، فتناولتْه فى لهفةٍ ، وجسَّت مكانَ الفصِّ الأحمرِ فلم تجدْهُ ، فنبَتَ فى وهمها أن شيئاً خطيراً وقع ، وطلبتْ زوجها قمرَ الزمان هنا وهناك فلمْ تجدْ له ريحاً ، فبَعَثَتْ فى

قبوتها ، وانزوتْ فى خيمتها ؛ تفكّر وتدبّر ، وتقدّرُ وتبرمُ ، وتقيسُ وتقطعُ ، وتمحو وتثبتُ ، حتى انتهى بها الرأى إلى أن تخفى عن حاشيتها فقدَ زوجها ، ووجدت من تَمَاثُلِهِما فى الخِلقة ما يُحكِم لها خُطتَها ، وتصيبُ بحيلتها هدفها ، فلبست ثيابَ زوجها وعمامتَه ، وتقلّدت سيفَه وعدّتَه ، وقامت فيهم آمرةً ناهية ، حاكمةً قادرةً سائرةً على نهجه ، ناسجةً على منوالِهِ ؛ فما أحسُّوا له فقدا ، وما افتقدوا له أثرا ، وأذِنَت فيهم بالرحيل ، بعد أن احتجزت أخصَّ الجوارى فى محفّتها ، لتقوم بخدمتها أيامَ مِحنتِها ، ودَأَبُوا على السير ، حتى كانوا أمام مدينةِ الأبنوسِ ، فضربوا خيامَهم ، وأقاموا ليستريحوا .

وطار نبأ وصولهم ، وإقامتهم ، إلى أرمانوس ملك المدينةِ فأوفد إليهم من يتعرّفهُم ، فقيل : إنّه ابنُ ملك ضلّ السبيل ، فاهتمّ الملكُ بأمرها ، وذهب إليها فى حاشيته ، فسلّمَ وحيّا ؛ ولقى من مظاهر الاجلالِ وسموّ الاستقبال ، وكريم الخلالِ ما أعظمَها فى عينِهِ ، واضطرّه أن يُكرِمَ منزلها ؛ فنقلهم إلى قصره ، وأنزلهم فيه منزلا طيّبا كريما ، وكان لا يمرُّ يومٌ من أيام ضيافتِهم إلا ازداد الملكُ إعجاباً بها ، وإقبالاً عليها ، وهو لا يعرف شيئاً عن حقيقتها .

وذات يوم جلس الملكُ إليها ، يذكرُ الصّبا ونضرَته ، والشبابَ وزهرتَه وما آل إليه هو من تعمير ، وتنكيس فى الخلق ، وأفنٍ فى الرأىِ ، وعجزٍ فى الحيلةِ ، وحرمانٍ من ولدٍ يكونُ خيرَ ظهير له فى حياته ،

ويرثه من بعده ، ثمَّ قال : ولقد مَنَّ اللهُ علينا بقُدُومِك أيُّها الولد العزيزُ، فلو رأيت أن تلبثَ فينا ، زوَّجتُك من ابنتي «حياة النفوس» . ونزلتُ لك عن ملكي ، وعِشْتُ بينكما والِدًا ، أنعمُ بما أنتما فيه من مودةٍ ورحمةٍ ، وعيشة راضيةٍ ، البقيةَ الباقيةَ من حياتي .

فأجابته بدور :

أليسَ لابنَتِكَ ابنُ عمٍّ أو قريبٌ ، فيكون أولى بها ، وأحقَّ بملكِكَ مني ؟ !

فقال : ليس لها ابنُ عمٍّ ، ولا أرى قريبًا أجدرَ بها منك ، على أنَّ العلمَ صلةٌ ، والعقلَ الحازمَ وشيجَةٌ ، والإنسانيةَ نسبٌ وقرابةٌ ، وأنتما ابنا ملكين ، وربَّ أخٍ لك لم تلِدْه أمُّكَ ، وربَّ ولدٍ لم يكنْ من صُلبك ؛ وقد رأيتُ ـكما كلَّ أولئكَ ، وذلك فضلُ الله يُؤتيهِ من يشاء ، فلا تردَّ نعمةً سيقتْ إليك ، ولا تدفعْ فضلاً أسبغه ربُّك عليك ، واللهُ يُؤتي ملكه من يشاء .

فقالتْ لك ذلكَ ، وعلى اللهِ قصْدُ السبيلِ .

تبوأتْ « بدور » عرشَ الملكِ ، وبَنَتْ بحياةِ النفوسِ ، بين مظاهرِ الفرحِ ، ومعالمِ الزينةِ التي شملتْ البلادَ ، وخفقت أعلامُها في كلِّ مكانٍ .

وجاء الليلُ ، ودخلت بدورُ على حياةِ النفوسِ في مقصورتِها ، فتعانقا ، وقبَّلَ كلٌّ منهما الآخرَ ؛ ثم نهضتْ بدورُ إلى الصَّلاةِ ، فجعلتْ تصلِّي ، وتصلِّي ؛ وحياةُ النفوسِ مُتلفِّعَةٌ بفضلِ حيائها ؛ تنتظرُ

وتنتظرُ ، حتى غلبها النومُ ، وغابَ بها عنِ الوجودِ اليقظِ .

ولما عَلمتْ بدورُ منها ذلكَ ، فرَغتْ من صلاتها ، ورقدَتْ بجانبها ، واسْتسلمتْ إلى النومِ حتى الصّباحِ ؛ ثمَّ نهضتْ بدورُ فى همّةٍ وثّابةٍ ، فصرّفت زمامَ الحكمِ ، وقضتْ بين الناسِ بالحقِ ، وأشاعتْ العدْلَ ، وبعثت مشروعاتٍ إصلاحيةً كبيرةً ، وأحْيَتْ ميّتَ النّشاطِ فى إدارةِ الشئونِ ؛ ثمَّ رجَعتْ إلى مقصورتِها ، وكان منها معَ حياةِ النفوسِ ما كانَ فى الليلةِ السّالفةِ .

وذهبَ والِدُ حياةِ النفوسِ إليها ، صَباح ليلة زفافِها ، يُهنّئُها ويسألُها عن حالها مع زوْجِها ، فقالتْ : ما رأيتُ أكثرَ حياءً وتديُّنًا وتنهُّداً منه ، وقصّتْ عليه ما كانَ .

ومضتْ ثلاثُ ليالٍ مُتَتابعات ، والحالُ لم يتغيّرْ ، فأقسم أبوها إن لم يَفْترِعْ بنتَهُ ويدخُلْ بها لأَقتُلَنّهُ ، ولأجْعلنَّهُ طعاماً للوَحش والطيرِ :

وفى الليلةِ الرابعةِ بلَغتْ « حياة النفوس » زوجَها ، ما كانَ من غضبِ أبيها وعزمِهِ وتوعُّدِهِ ، فجلستْ بدور إليها ، وقصّتْ عليها قِصّتَها ، وكشفت لَها عن حقيقتِها ؛ وقالتْ : والآنَ حياتى بين يديكِ ، فلو احتسبتِ لكِ عند اللهِ أجراً عظيماً ، وعندى فضلا كبيراً ، كتَمتِ أمرى ، حتى أَلتَقِيَ بقمرِ الزّمانِ زوجى ، فهو الآن فى سبيلِهِ إلينا ، إذ ليس له طريقٌ فى اتجاهِهِ إلا هذا الطريقَ الذى جاء بى إليك ، وأرجو من اللهِ أنْ يَقِيهُ شرَّ البلاء ، حتى يجمعَ شملنا ، ويُوَحِّدَ بيننا .

فقالت « حياة النفوس » : ليس أعظمُ عندى من هذا الصنْعِ الجميل، وأنا لَكِ كما تريدينَ ، فَطِيبِي نفساً ، وقرِّى عيناً ، ونهضتْ إلى دَجاجةٍ فذبَحتها ، ولطّخَتْ قميصَها بدمها ، ونامتا مُتعانِقتين مُتآلِفتين .

وفى الصّباح ذهبتْ بدورُ إلى شأنِها ، تُصرّفُ زمامَ مُلكِها ، وجاء أبو حياة النفوسِ إليها ، فأنبأَتْهُ أن زوجَها دخلَ بها ، وهى منه على أهنأِ بالٍ ، وأسعدِ حالٍ ؛ وشكرتْ لأبيها حُسْنَ اختيارِه ، وأرتْه ما كان من الدّماء على قميصِها ، تصديقاً لِقولِها ، فخرجَ وهو لا تَسَعُهُ الدنيا سروراً ، واطّردتْ بهم الحياةُ على هذهِ الحالِ مُدَّةً من الزّمانِ .

(٧)

مَضتِ اللّيلةُ الموعودةُ على الملكِ شهرمان ، بعدَ أن خرجَ للصّيدِ ابنُه قمرُ الزمانِ، ومعه الفتى مرزوانُ ؛ وعكفَ اللّيلةَ التاليةَ يرتقِبُ حُضورَهما، ساهراً ، قلقاً ، مُضطرِباً ؛ تذهبُ به الهواجسُ كلَّ مذهبٍ ، وتخوضُ به الوساوِسُ كلَّ مُضطرَبٍ ، وفى مُتوعِ النهار، شدَّ الرّحالَ ، وعبّأَ الرّجالَ ، وسارَ فى أثرِ ابنِهِ جادًّا فى طلبِهِ ، حتى وصَلَ إلى ذلك المكانِ الفسيحِ ، فألفَى ثيابَه وثيابَ مرزوانَ ممزَّقةً ، مُلوَّثةً بالدِّماء ، فأيقنَ أنّهما اغْتِيلا ، وكانا طعاماً لِوُحوشِ الغابةِ ؛ فحزِنَ ، ورَجَعَ كابِيَ اللّونِ ، كاسِفَ البالِ ، بَئِيسَ الحالِ ، يَتميّزُ بُؤساً وغمًّا ؛ وأعْلنَ فى مُلكِهِ الحِدادَ ،

وأعدَّ له فى قصرهِ حجرةً سمَّاها حجرةَ الأحزانِ ، يحُجُّ إليها كلَّ حينٍ ، فيلبثُ فيها ذاكراً ابنَهُ ، باكياً عليه .

أمَّا قمرُ الزمان فإنه ظَلَّ مُنكبًّا على عملِهِ ، كادحاً إلى البستانىِّ كدحاً، حتى يَجزيَه سفراً قريباً إلى مدينة الأبنوس، فى أوَّلِ مركبٍ يُقلِعُ إليها .

وبينما قمرُ الزمان يُزاوِلُ عملهُ فى جلَدٍ وصبْرٍ ، ضربَ بفأسِه تحتَ شجرةٍ من أشجارِ الخَرُّوبِ ، فلم تقطعْ الفأسُ الأرضَ ، وكانتْ ترتدُّ إليه كلَّما قويَتْ الضربةُ ، فتبيَّنَ أمرَها ، فألفى غِطاءً حجريًّا أزالهُ ، فانفرجَ عن حجرةٍ مملوءةٍ ذهباً، فى أوْعيةٍ يرجعُ عهدُها إلى عادٍ وثمودَ ، فقال : هذا خيرٌ ساقه الله ، وله ما بعدَهُ ، وجلس غارقاً فى تفكيرِهِ ، سابحاً به خيالُهُ ، حتى قطعَ عليه هذا السَّبحَ الطويلَ أن رأى على شجرةٍ طائرين يتنازعان فنقرَ أحدُهما الآخرَ فى عُنُقِه ، ففَصلَ رأسَهُ عن جِسْمِه ، ووقَعَ على الأرضِ جُثَّةً هامدَةً ، وطار القاتِلُ إلى سبيلِهِ .

وبعدَ فترةٍ وجيزَةٍ حطَّ طائران على تلك الجُثَّةِ ، وحفرا لها حفرةً ، وواريَاها فيها ، ثمّ طارا ؛ وما هى إلا لحظةٌ حتى عاد الطائران ، ومعهما الطّائرُ القاتِلُ مخطًّا به على الطّائرِ المدفونِ ، ثم قطَّعا جِسْمَهُ إرْباً إرْباً وبعثرا أشلاءَهُ هنا وهناك ؛ وكانتْ حَوْصلةُ الطائر الممزَّقِ يَشِعُّ منها بريقٌ ، فذهب إليها قمرُ الزمان وتناوَلها ، فوجدَ الفصَّ الأحمرَ ، الذى كان فى نِطاقِ زوجه بدور ، والتقطَهُ الطائرُ من كفِّهِ ، وهو يتبيَّنُهُ ويفحصُهُ ، فتحرَّكَتْ فى نفسه بُشْرَى اللِّقاء بزوجه .

وجاء إليه البستانيُّ ، وأمرَهُ أن يتأهَّبَ للسفرِ ، بالمركبِ الذى يقومُ إلى مدينةِ الأبنوسِ ، بعد ثلاثةِ أيامٍ ، فشكر له هذه الرِّعايةَ الطيِّبةَ ، والعشرةَ الرَّاضيَةَ ، وأطلعه على الكنزِ الذَّهبيِّ، وعلى ماحدثَ من الطيورِ والفصِّ الأحمر الذى عثر عليه .

فقال : هذا رزقُكَ يا ولدى ، فإنى أعملُ فى هذا البستانِ منذُ ثمانينَ عاماً ، ولم أجدْ شيئاً من هذا .

فقال : وإنه لقِسْمَةٌ بيننا ما من ذلك مفرٌّ .

فنزل على رغبتِهِ شاكراً ، وأحضرَ لهعشرين قِدْراً عبَّأها له ذهباً ، وغطّاه بالزيتونِ العُصفُرِىِّ لِيُخفِيَهُ ، وقال له : إنه زيتونٌ لا وجودَ له فى غيرِ هذا البستانِ ، وهو مُحَبَّبٌ إلى الناسِ لِنُدْرتِهِ وجَوْدتِهِ ، ووضع قمرُ الزمان الفصَّ فى أحدِ القدورِ ونقلها جميعَها ، ونقلَ معها ما أعدَّ من زادٍ إلى المركب .

وفى صبيحةِ اليومِ الرّابعِ ، دخل ربّانُ المركبِ وصاحبُه البستانَ ، ونادى ذلك الشيخَ العاملَ فيه ، وكان قد أصابه مرضٌ ، ثقُلَتْ وطأتُه ، وعظُمتْ حدّتُهُ ، وألزمَهُ فِراشَهُ ؛ فأجابه قمرُ الزّمانِ وسألهُ حاجتَهُ ، فقال الرُّبّانُ : ابعثْ الفتى الذى يريدُ السَّفرَ إلى مدينة الأبنوس ، فإن المركب مقلِعٌ الساعة . فقال : إنى أنا الفتى المسافرُ ، وسألحقُ بك على عجَلٍ .

كان الشيخُ البستانىّ مُحتَضَراً ، فأبى على قمر الزمان نُبْلُه ومروءتُهُ أن

يفارِقَهُ ، حتى يكونَ له أوّلَ ردْءٍ ، وخيرَ عونٍ ، في أحرجِ أوقاتِه ، وفاءً لسالفِ العِشْرَةِ ، وكريمِ الصُّحبةِ .

وشاء القدرُ أن يُسلِمَ البستانيُّ نفسَهُ إلى بارئِها بين يديه ، فغسَّلَهُ وكفَّنَهُ ، وصلَّى عليه ، وواراه في الترابِ ، ثم ذهب مسرعاً إلى المركبِ ، فوجدهُ يتهادَى في البحرِ على ضوْءِ البصرِ ، إلى مدينةِ الأبنوس ، حاملًا متاعَهُ وزاده ، فارتدَّ إليه بصرُهُ خاسئاً وهو حسيرٌ ، وعاد إلى البستانِ مؤمِناً بقضاءِ اللهِ وقدرِه خاضعاً لِحُكمِهِ ، راضِياً بقضائِه ، صابراً على ما أصابه ، وجعلَ يعملُ في البستانِ إلى أن يَقضِيَ اللهُ أمراً كان مفعولًا .

وصل المركبُ إلى مدينةِ الأبنوس ، وكانت الملكةُ بدوْرُ مُطِلَّةً من شباكِ قصرِها ، ولمّا رأتْ المركبَ خفَق قلبُها ، وأحسَّتْ من نفسها دافعاً يدفعُها إلى أن تذهبَ إليه ، ولم تستَطِعْ له إغفالًا ولا ردًّا ، وفي ثُلَّةٍ من حرسِها وجنودِها كانت بالمرفأ ، ترقُبُ تفريغَ المركبِ ، فراقَ لها أن تبتاعَ الزيتونَ العصفوريَّ جميعَهُ ، ونقَدتْ صاحِبَ المركبِ ثمنَهُ ، وأمرتْ بنقلِه إلى قصرِها وألّا تُمَسَّ القدورُ بالتفريغِ إلاَّ في حضرتِها ، وعادتْ في التَّوِّ والساعةِ ، فأُفرِغَ أمامَها أوّلُ قِدْرٍ فوجدتْ وجه مافيها زيتوناً ، وبقِيَّتَهُ ذهباً ، كما عثرتْ على الفصِّ الأحمرِ الذى كان في نِطاقِها ، وافتَقَدَتْهُ هو وزوجَها ، فأمرتْ أن يحضُرَ صاحبُ المركبِ إليها .

ولما حضر سألتْهُ عن هذا الزيتونِ ، ومن أينَ أتى به ؟ .

فقال : إنه من بستانٍ بجوارِ مدينةٍ للمجوسِ ، وصاحِبُه شابٌّ فقيرٌ ،

لم يستطعْ أن يلحقَ بنا ، ويركبَ معنا ، فخلَّفناه فى هذا البستانِ ، فأنذرَتْهُ : إن لم تأتِ بهذا الشابِّ قتلتكَ شرَّ قِتْلَةٍ ، ولن تستطيعَ منى هرباً ، فأنتَ تحتَ رِقابتى ، حتى تحضُرَ به إلىَّ .

فقال : سمعاً وطاعةً ! وسأُحْضِرُه عمَّا قريبٍ .

وعاد صاحبُ المركبِ وأعوانُه إلى البستانِ ، فحملوا قمرَ الزّمانِ ، وأقلعُوا به ، فسألهم عن سببِ هذا ، فقالوا : لا ندرى ، ولكنَّكَ بُغيةُ ملكِ الأبنوس ، وطِلبتهُ المنشودةُ ، ونرجو الله أن ينجيَكَ من شرّه ، ويحفظك من بَطْشِهِ ، فما علمنا عليكَ من سوء ، ولا عرفناك إلا خيِّراً صالحاً كريماً ، وربما كبا بك الحظُّ ، فأصبحت موضِعَ شبهةٍ ، ومبعثَ ريبَةٍ ، وكنتَ لذلك ضالَّةَ الملك التى يبغيها ، ويُلحُّ فى الحصول عليها .

وجىء بقمر الزمان إلى القصر ، ولما رأتْهُ عرفتْهُ ، فأمرتْ أن يذهبَ إلى الحمَّام ، ويلبسَ حُلَّةً فاخرةً ، ويقيمَ فى مقصورةٍ بالقصرُ مكرَّماً مُطاعاً ، وكانت قد أسرَّتْ إلى حياة النفوس أن الفتى الذى طلبتْهُ ، إن لم يكن قمرَ الزّمان ، فإنه سيكونُ الدّليلَ عليهِ ، والسّبيلَ إليه ، ثم أخبرتها بعد حضوره أنَّهُ هو ، واتَّفقَتا على أن يكتُما خبرَه أسبوعاً ، ثم يُفضِيَا إلى والد حياة النفوس بقصَّتهما .

لَبِثَ قمرُ الزمان أسبوعاً فى مُقامِهِ الذى أُعِدَّ له ، يَنشَقُ نسيم النَّعيم ، ويتقلبُ فى مهاد العزّة ؛ فكان ذلك فى نفسه مَثار عجبٍ ودهشةٍ .

وفى صباح اليوم الذى تلا هذا الأسبوع ، جمع — الملكة « بدور » ،

وحياة النفوس ، ووالدها ، وقمر الزمان — مجلسٌ خاصٌّ ، وجعلت بدورُ تسرُدُ على المسامعِ تاريخَها . وماحصلَ لها ، حتى جيءَ بقمر الزمانِ زوْجِها، ثم قالت :

وهذه ابنتُك الصِّدِيقة ، لا تزالُ بِكرًا ، لم تمسَسْها يدٌ ، وهذا مُلكُكَ العامِرُ ، أردُّهُ إليك سليماً قويًّا ، وهـذا قمرُ الزمان زوجي ، وأنا بدورُ زوجُهُ ، فاغرورقتْ عينا قمر الزمان بالدُّموعِ ، وعُقِدَ لسانُه ، وأُرتِجَ عليه .

التفت الملكُ إلى قمر الزمان فحيّاهُ . وهنّأه ؛ وقال له : ألا تُحبُّ أن يطَّرِدَ فضلُ الله عليك ، ويزدادَ إحسانُه إليك ، بما يوليكَ من نِعَمِه ، ويسوقُ إليك من كرمِهِ وعزَّتِه ؟ !

فقال : أُحِبُّ ذلك مع الحمد الجزيلِ .

فقال الملك : وإني أرغبُ أن تكونَ زوجاً لبنتي على أن تتبوأ عرشَ ملكي .

فقال : حتى أستأذِنَ زوجي بدور .

فأجابتْ على الفور : ذلكَ أحبُّ شيء إلى نفسي ، وعسى أن نفِيَ بجزءٍ من عظيمِ فضلِها ، وبالغِ معروفِها ، وصِدقِ أُخُوَّتِها ، وصادقِ وفائِها .

وحضر القضاةُ والشهودُ ، وتمَّ الزواجُ ، وتبوَّأ عرشَ الملكِ ، وعاش جَميعُهم عيشةً هنيئة ، في ظلالِ الخفضِ ، واطِّرادِ النعيم ، وابتلاجِ الأُنسِ ، وعزَّةِ السلطانِ ، وبسْطةِ الأمنِ والسَّلام .

رُزِقَ قمرُ الزمان من بدور ولدًا سمَّاه الأمجد ، ومن حياة النفوس .

ولداً سماه الأسعد ، وكان الأمجد أكبر سنًّا من الأسعد ، وإن تشابها خلقاً وجمالاً ، وقطعا سبعة عشر عاماً فى مِهاد التربية والتعليم ، حتى أوْفَيَا على الكمال منهما ، فقوى فيهما البيان ، وذكا الجَنان ، وحَصُف الرأى ، وأضاء البصر بالأمور ؛ فكانا مَطْمَحَ الأنظار خَلْقاً وخُلُقاً ، وتثقيفاً وتهذيباً ، واستعان بهما والدهما فى شئون مُلكه ، وسياسة رعيته ، استعانةً صادرةً عن عزم مشبوب ، وحكمة مبصرة ، وقدم راسخة ، فى التدبير والسياسة .

شُغِفت كلٌّ من الزوجين أن يكون المُلكُ لابنها بعد أبيه ، وخشيتْ أن يكون لأخيه من دونه ، فمهدت السبيلَ إلى رغبتها هـذه ، فى حياة والده ، ورأت كلٌّ منهما أن خير وسيلة تُمكِنها من بُغْيَتها ، أن تقتلَ ابنَ ضرتها ، وتنسخَ وجودَه ، فيصفوَ الجوُّ لابنها ، ويَئُولَ إليه المُلْكُ بالوراثة .

كانتا تتقابلان على صفاء ، وتجتمعان على مودة ، وتتحادثان فى أنس ورحمة ، وتتعاملان بالإيثار والتضحية ، حتى لا تُحسَّ إحداهما ما تدبره الأخرى من كيد لابنها ، ومكر سَيِّئٍ به .

إن كلا منهما تبحث عن جريمة ، تُلوِّثُ بها ابن ضرتها ، لِيَحِقَّ عليه الإعدام ، فأية خطيئة تغرقه فيها إلى ذقنه ؟ وكيف يكون ذلك ؟ وعلى يد مَن ؟

إنه ليبدو أمراً عسيراً ، وشيئاً نُكْراً ، وإثماً مبيناً ، وعملاً ثقيلاً ، ولكن المرأةَ لا يُعْجِزها ما يعجز الرجل ، من عسير الأمر وصعبه ،

ولا يعوقها ما يعوقه من مراقبة الضمير وعظته ، وسلطان الدين وهديه .

لقد اهتدتْ كلٌّ منهما إلى جريعة خائنة ، أو خطيئة غادرة ، وماذا عليها لو ادَّعَت أنَّ ابنَ ضرتها راودها عن نفسها ، فاستفزّتْ غضبَ والده ، وأثارتْ نخوته ، وأشعلت الحَمِيَّةَ فى صدره ، فقتله من فَوْرِه ، وخلا الملكُ لأخيه ! !

ولكن كيف تُحْكَمُ هذا الادعاء ؟ وكيف يطرقُ آذانَ الملك ؟ وكيف يُحاط بالتأييد ؟ وكيف يركب مَتْنَ السرعة ؟ حتى لا يُضعِفَ تيارَه امتداد الزمن ، ولا يجد مجالاً لمشورة ، أو توجيه نصيحة ؟

طلبت حياةُ النفوس من ابن ضرّتها الأمجد ، أن يأتيَها فى مقصورتها الليلة ، عقب صلاةِ العِشاء ، فيتلوَ عليها ما تيسر من آى الذكر الحكيم ، ويقفها على بعض من تأويل الآيات ، وتبيين أحكامها ومراميها ، فأبى واعداً .

وطلبت بدور من ابن ضرّتها الأسعد ذلك الأمرَ نفسَه ، فى الوقت عينه ، فلبي واعداً .

ثم أسَرَّتْ كلٌّ منهما إلى المَلِكِ أن ابنَ ضرتها ينتهزُ فرصة غيابك عن قصرك ، إلى شئونك ليلاً ، ويحضُر إلى المقصورة بعد العشاء ، يراودنى عن نفسى ، وطالما نهرتُه وزجرتُه ، وبَيَّنْتُ له سوءَ فَعلته ، وأنه يخون بذلك والده ، الذى رباه ورعاه ، فلم يَنْثَنِ عن غَيِّه ، وهان فى نظره خيانتك ، وآية صدقى فى قولى ، أن تعلن غيبتَك الليلة فى جهة ما ، وتركبَ السبيل إليها ، ثم ترجعَ إلى مقصورتى بعد العشاء ، مستخفياً

فستجده حاضراً ، قد ألهيته عنى إلى حين ، بجعله يتلو علىّ شيئاً من آيات الكتاب الكريم ، ويقفنى على معانيها وأغراضها ، وا كتم هـذا الأمر حتى لا تكونَ فضيحة كبرى ، يتناقلها الملوك ، ويَلمزُك بها أقرانُك ونظراؤك . وكتم الملكُ أمره ، وكظم غيظَه ، وأعلن سفره ، فلما جاء الليل عاد ، ودخل على حياة النفوس فى مقصورتها ، بعد المشاء ، فوجد ابنه الأمجد جالساً ، يحمل كتاب الله الكريم ، ويتلو منه ايات بينات ، هدى ورحمة للعالمين ، فسلم وخرج من فوره ، إلى بدور فى مقصورتها ، فوجد ابنه الأسعد جالساً ، يحمل كتاب الله الكريم ، ويتلو منه آيات بينات ، هدى ورحمة للعالمين ، فسلم وخرج ، وأحضر سيافه ، وأمره أن يأخذ ولديه لساعته ، إلى خلاء البرِّيَّة فيقتلهما ، ويأتيه بملابسهما ، تاركاً جُثَّتيهما للوحش والطير .

وصدع السياف بالأمر ، وخرج بهما إلى واد فسيح موحش ، موغل فى البعد عن المدينة ، وهناك قال السياف لهما ، ونفسه تقطر ألماً وأسفاً عليهما ، وكانا لا يعلمان من أمرهما شيئاً :

« إذا كان مولاى الملك ، ووالدكما الكريم ، قد أمرنى أمراً فيكما فهل أنتما مطيعان ؟ »

فقالا : إذا كان لأبينا فافعل ما تؤمر .

فقال : ولو قضى بقتلكما ؟

فقالا : هل أطلَعك على السبب ، أو علمت علينا من خطيئة ؟

فقال : لم يُطلعنى على سبب ، ولم أقفْ لكما على إثم أو جريمة ، ولكنه أمرٌ صارم ، لا أجد لنفسى فى الخروج عنه حيلة ، وإن كنت لا أستسيغه ، ولا أرتضيه ؛ ولهذا فإنّ فجيعتى بقتلكما أشدُّ وقعاً على نفسى من فجيعتى بفناء أولادى دفعة واحدة !

فقالا : إن حَقَّنا فى الدفاع عن أنفسنا لا يزال قائماً ، ما دمنا لم نعرف لنا ذنباً ، وإذا كان الحكمُ خاطئاً كما نعتقد الآن ، فمن العبث أن نعجل بالانصياع إليه ، فنكون شركاءه فى تَبِعَتِه ، وقسماءه فى مسئوليته ، ولو كان عن جريمة منا تستحقه ، لسقنا إليه أنفسنا سوقاً !

فقال : وكما أنه من الحق أن تدرءا عن أنفسكما ظلماً فمن الحق لى أن أدرأ عن نفسى هذا الظلم عينه ، فقد أصدر الملك أمره لى بقتلكما ، وإلا قتلنى بنجاتكما .

فقالا : لعلَّ إصرارَك على قتلنا لأمرٍ علمته فينا ، وأنت تخفيه عنا ؟ !

فقال : ومَنْ خَلَقَ الأرض والسماء ، ما علمتُ عليكما من سوء .

فقالا : إن الظلم لم يُخلق وحده ، ولكن خُلِق العدلُ معه ، وإن القسوة لم تكن وحدها ؛ ولكن الرحمة معها .

وإذا كنت ترى هذا الأمر ظلماً وقسوة ، فمن العدل والرحمة أن تُرجئَ تنفيذَه ، حتى يتبيَّنَ الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، وسنعرض عليك موقفين لك فى حالين ، ولك ما تشاؤه منهما .

ما موقفُك من الملك ، أو ما موقف الملكِ منك ، لو صدعتَ بأمره ، ثم تبيَّنَ له خطَؤُه ، وكان فجيعةً له ، وفجيعةً لوالدتَيْنا ، وجنايةً على نفسين بريئتين ، حرم الله قتلهما إلا بالحق ، وضياعاً لملكه الواسع من بعده ؟

وما موقفُك من الملك ، أو ما موقف الملك منك ، لو أرجأتَ تنفيذَ أمرِه على غير علم منه ، ثم تبيَّنَ له خطؤُه ، وندم على ما فعل ، فأظهرتَ له الحقيقة ، وأعلمتَه أنك لم تقتُلْنا ، بل أرجَأتَ ذلك أملًا فى ظهورِ براءتنا ؟!.

فقال : لا ريب أن موقفى فى حالة الإرجاء ، أهنأ بالا ، وخير مَرَدًّا ؛ ولكن من يَضْمَنُ لى أن يُرْجِئَ الملكُ قَتْلى ، حتى يتبيَّنَ الرُّشد من الغَىّ ، والآن قد أبطأتُ بعودتى ، وربما بعث الملك مَنْ يطلبنا ، فقتلنى وقتلكم ، فاختارا لأنفسكما من أقتله أولا .

فقالا : أوْثِقْ كتافنا متقابليْن ، واضربنا بسيفك هذا ضربة واحدة ، حتى لا يتجرع أحدُنا كأسَ المرارة من أجل أخيه .

وما انتهى من إيثاقهما ، حتى جفلت فرسه ، فخفَّ إليها ، يجرى خلفها ، وما زالت تجرى ، ويجرى هو وراءها ، حتى دخلت غابة شجراء فتبعها ، ثم وقفت من تلقاء نفسها ، بجوار شجرة من أشجارها ، فذهب إليها وأمسكها ، وكان قد أنْهكَه التعب ، فجلس بجوارها يستريح ويستجم .

أخذ الأمجد والأسعد يتحركان ، ويتقلبان على الأرض ، ذات اليمين وذات الشمال ، حتى فُكَّ الوَثاق ، وانحل الرباط ، فتقلد أكبرهما سيف المملوك السياف ، وسارا فى أثره حتى دخلا الغابة ، فألفيا أسداً جاثماً فوقه ، يَهُمُّ باغتياله ، فأسرع الأمجد وضرب الأسد فى رأسه بسيفه ضربة أراقت دمه ، وأزهقت روحه ، ونجا المملوك السياف سالماً ، فحل هذا الصنيع الجميل من نفسه محل التقدير والإعظام ، وقال : والله لن أقتلكما لقاء صنيعكما هذا ، ولكنى سآخذ ثيابكما ، وبعضاً من دم الأسد إلى أبيكما ، لتكون آية صدقٍ على تنفيذ أمره ، وأما أنتما فسأخلى سبيلكما إلى أرض الله الواسعة ، فى رعاية الله وكنفه ، والله خيرٌ حافظاً ، وهو أرحم الراحمين ، ثم مضى كلٌّ إلى سبيله ، وكان قد كتب كلٌّ من الأمجد والأسعد العبارة الآتية فى قرطاس ووضعها فى جيب ثيابه المحمولةِ إلى أبيه :

« والدى العزيز

لقد قبلْنا حكمَك مظلومَيْن ، صابرِيْن مطيعيْن ؛ ولكن يعزُّ علينا أن يقفك الله بين أيدينا نادماً ، باكياً ، تدعو ثبوراً كثيراً ، يوم لا تنفع فيه شفاعة الشافعين » .

ودخل المملوك السياف على الملك ، وناوله ثيابهما ، فوجد فى جيب كلٍّ منهما الكتابَ السابقَ ، ولما قرأه — وكان قد خمدت سَوْرَةُ الحَمِيَّة فى نفسه ، وتحركَ كامنُ الحزن فى صدره ، على فقد أولاده — أصرَّ على أن يبحث الأمر ، ويَجْلُوَ الموقف ، ويُبدد من حوله ذلك الظلام الحالك ،

فوضعهما في جيبه ، وأمر السياف أن ينصرف ، ويضع الثياب في مكان حصين .

كان جزع كلٍّ من بدور وحياة النفوس على ابنيهما عظيماً ، تنفطر له المرائر ، وتئنُّ منه أرجاء القصر ، وكلما دخل الملكُ على واحدة منهما قالت باكية عاتبة : كيف تقتل ابني؟ وما ذنبُه معك ؟ ومن يَخْلُفُك في مُلكِك ، ويرعى أسرتَك ، ويخلدُ ذكرك ؟ لقد فعلتَ ما لم يفعلْه مَلِك قبلك ، ولن يُقدم على مثله ملك بعدك .

كانت هذه الحال مثارَ عجب الملك وحَيْرتِهِ ، وحافزاً على أن ينظرَ فيما فعل نظرة فاحصة ، تُسكن ثائر القلق في نفسه ، وتوضح الغموض الذى خلقته هذه الحال في أسباب حكمه ، فماذا فعل ؟

اصطفى من بين وزرائه اثنين ، عُرفا بنفاذ البصيرة ، وبُعد النظر ، ودقة القياس ، وصِدْقِ الاستنتاج ؛ وجمعته بهما خلوة عميقة ، وعرض عليهما أمرَ ابنيه ، بكل ما يحيط به ، وما انتهى إليه ، وما كان من زوجيه قبل نفاذ الحكم وبعده .

فقال أحدهما : هل كان مولانا الملك يلمح في ابنيه جُنوحاً للهوى والمرح ، أو ميوعةً في النظرة ، والحديث ، والحركة — إذا ما اجتمعا أو التقيا بجَوارى القصر ، الفاتنات جمالا ، الساحرات شكلا وقواماً ؟

فقال الملك : أدب جم ، وحياء أصم ، ورجولة فذة ، ونظرات بريئة ، تشع ديناً وتقوى .

قال الآخر : وهل كانت كلٌّ من الأُمَّيْن تعطف على ابنها أكثرَ من ابن ضرتها ، وتحاول أن تُحَوِّل عطفك ورضاك نحو ابنها ، وتجهد أن تجعلَه خليفةً لك على مُلكك من دون أخيه .

فقال : كلتاهما فى ذلك سواء ؛ فقد كانت كلٌّ منهما تُشيد بمحاسن ابنها ، وتُلحُّ فى بيان فضائله ومزاياه ، بينما كانت تحطُّ من قيمة أخيه ، وتجعل من حبَّةِ النَّقص فيه قُبَّةً .

وقال الأول : هل سألت ولديك عن سبب وجودهما بعد العشاء فى مقصورتَىْ زوجيك ؟ .

فأجاب : كلاَّ ! ولقد أرسلتهما مع السَّيَّاف دُونَ أن يعرفا مصيرهما .

وقال الثانى : وهل لمحتَ عليهما رُعبا ساورَ نفسيْهِما وقتَ أنْ قام بهما السَّياف إلى وجهته ؟ .

فقال : لقد نظرتُ إليهما من شباك القصر ، فوجدتهُما مطمئنَّيْن اطمئنانَ الطفلِ إلى ثدى أمِّه .

وقال الأول : هل قالاَ شيئاً للسياف قبل أن يَنفذَ فيهما حُكمُك ؟ .

فأجاب : وجدت فى جَيْبَىْ قَميصَيْهما هذين الكتابين ، وناولهما إيّاهما ، ولما قرآهما قالا : يبدو لنا براءة ولدَيْك ، وطهارة سعيهما إلى مقصورتيْك ، وأنَّ هذا من كيدِ زوجَيْك ، وليخلصَ الملك إلى ابن إحداهما من بعدك عمدتْ كلٌّ منهما إلى الاحتيال فى قتل ابن ضرَّتها ، وشاء القدَر أن يثأرَ لبراءة ابنيك ، فأصاب بسهمه كلتيهما ، وكان جَديراً بمولانا الملك أن

يتريَّثَ ولا يَعْجل ، ولكنَّ الله تعالى لا رادَّ لقضائه ، ولا مُعقِّبَ لحكمه، فصبرٌ جميل ، وإنَّا لله وإنا إليه راجعون ؛ ومن الحزم أن تكتُمَ حزنك فى صدرك ، حتى تبقَى للقصر طهارتُه وعِزَّته ، وما كان كان ، وإلى الله عاقبةُ الأمور .

فقال : وإليه أشكو بَثِّى وحُزنى ، وأرجو مَغْفِرتَه على ما فرَّطْتُ فى جَنبه ، وظلمتُ أولادى ، وبَغَيْتُ عليهم بَغْيا جاهلا جائراً ، وكان علىَّ أن أتبيَّنَ قبل أنْ أُصيبَهُما بجهالة ، وأُصبحَ نادما على ما فعلتُ . وانفرطَ عقد المجلس ، وكأنَّ شيئاً فيه لم يكن .

(٨)

هام الأخوان : الأمجد والأسعد على وَجْهيهما فى البَرِّيَّة ، لعلهما يجدان فى مَسيرهما عامِرًا من الأرض ، يُرزَقان فيه ، وينتهى رحيلُهما عنده ، فجعلا يطويان الأرضَ طيًّا ، حتى اعترضَ سبيلَهما جبلٌ من الصَّوَّان الأسود ، فصَعِدا فيه : تتقاذفُهما وُعورتُه ، حتى امتطيا صَهْوته ، فاستنشقا نَسيمَ الكفاف من الراحة قليلا ، ثم استأنفا سيراً جاهِداً ، وإن أقدامَهُما لتنُوء بجسْمَيْهما ، على ما بهما من خِفَّةٍ وهُزال ، وكان بقِمَّةِ الجبل شجرةُ رُمانٍ على عَيْنٍ من الماء ، فأكلا من ثمر الشجرة ، وشربا من ماء العَيْن ؛ وقعد بهما التَّعبُ فى ضِيافتها ثلاثة أيام ، فتزوَّدا بقليل من الراحة ، قطعَا

به الجبلَ عَرضاً ؛ ولاحت لهما من الوادى مدينة « تُسمَّى « بَهرُوز » ، فانحدرا إليها .

ولما كانا فى سفح الجبل ، قال الأمجدُ لأخيه : إنَّك مُتعب ، ويزيدُك الجولانُ فى المدينة تعَباً ، فامكث هنا حتى أَرجعَ إليك بما أُحضرُه من زادٍ ، وما أعرفه من أبناء هذه المدينة وأهلها ، لتكونَ على علم بدار مُقامنا.

فقال الأسعد : لا أستطيع صبراً على غيابك ، وخير لراحتى أن تمكثَ أنت هنا ، حتى أعود من المدينة ، حاملا ما تَبْغِى من قوت ومعرفة .

وبعد أن مشى الأسعد فى المدينة قليلا الْتَقَى بشيخ مُعمَّر ، يمشى على ثلاث : رجليه وعُـكَّازتِه ، ذى لحيةٍ تُغطىّ صدره ، فسأله :

أين سوقُ المدينة أيُّها الوالد ؟ .

فقال : لعلك غريب عن الديار ! قال : نعم ؛ ولى أخ ينتظرنى فى سفح الجبل ، وينتظر ما أحمله من طعام نتبلغُ به .

فقال الشيخ : اشكرْ ربَّك يا ولدى الذى سخَّرنى لك ، ونجَّاك من أهل المدينة ، وإنى أحبّ الغريبَ وإكرامَه ، وعندى الليلةَ وليمةٌ ، أعددْتُ لها صنوفاً من الطعام والحلوى ، فلو أكرمْتَنِى بأن تذهب معى إلى دارى ، فتأخذَ حاجتك وحاجةَ أخيك من طعامٍ شهىٍّ ، دونَ أنْ تنقُدَ له ثمنا كان لك الشكر الجزيل ، إذْ مكَّنْتَنى من إكرام غريب تثقل به موازينى ، ويكون لى شفيعا يوم الدين .

فقال الأسعد : أكرمك الله وأسعدك .

ومشى معه حتى دخل به داره ، فوجد فيها ساحةً فسيحةً ، بها حَلْقةٌ من أُناس حافِّين من حولِ نارٍ مُوقدَةٍ ، يسجدون لها ويعبدونها من دون الله ، فأصابه الفزَع ، وارتقب شرًّا ، وأيقن من خديعةِ الشيخ ومكره

وهناك نادى الشيخُ على رجلٍ فارع ، وأمره أن يأخذ الأسعد إلى القاعة التي تحت الأرض ، ويتولَّى تعذيبَه ، حتى يأتىَ يومُ عيد النار ، فيذبحوه على الجبل ، قُربانا لها وزُلفى .

وسيق إلى القاعة مكتئباً حزيناً ، ولقى فيها من ألوان التعذيب . ما تقشعرُّ له الأبدان ، وتنشقُّ المرائر .

ولما طال بالأمجد الانتظار ، وثقُلت عليه غيبةُ أخيه دخل المدينة يترصَّدُه فى كل مكان ، ويرتقبه فى كل مُرتَقَب ؛ وهو مَديد البصر ، مرهف السمع ، متوقِّدُ الحسّ ؛ فلم يقف له على أثر ، فانتحى ناحيةً من شارع ، أمام دكان خياط ، وجلس جلسةً ضارعة أسيفة كئيبة حزينة ، وكان الخياط رطبةً كبدُه ، بما آمن بالله ورسوله ، مشرقًا بنور الإيمان قلبُه ، فحنَّ إليه لمَّا رآه ، وظنَّ أنه أَلَمَّتْ به كُرْبةٌ ، وهو فى حاجة إلى من يُنَفِّسُها عنه ؛ ولعلَّ غُربتَه ، وجهلَ الرُّحماء به سَدَّتا منافذَ المعونةِ دونَه ، فانطوى مُستيئسا على نفسه ؛ فذهب إليه ودعاه إلى دكانه ؛ يجلس معه ، وهناك سأله عن حاجته ، فعرَّفه بنفسه وأخيه ، وقصَّ عليه ما أصابهما ، وأنه الآن يبحث عنه ، ليلْتقىَ به ، ويطمئنَّ عليه .

فقال الخياط : إنْ كان يا ولدى قد وقع فى يد مجوسىٍّ فلقاؤُك به

عسير ، وإن احتضنه مُسلم فلا خوف عليه ، واجتماعك به قريب يسير ؛ وخيرُ الأمورِ أن تبقَى لَدَىَّ ؟ تتعلّم الخياطة ، وتعيش معنا فى صُحبة أولادى ، فَتطعمَ مما نطعمَ ، وتَشرب مما نشرب ، وتلبس مما نلبس ، بمقدار ما تُهيئه بسطةُ الرزق ، حتى يُقيِّضَ اللهُ لأخيك ظهوراً قريباً ، ويُهيِّئَ لكما لقاءً حميدا . فشكر له مروءتَه وكرَمه ، وعاش معه ، كأنّه أحدُ أفرادِ أسْرَته .

وبينما هو يسير فى إحدى طرق المدينة ، لبعض شئونه الْتقَتْ نظراتُه بنظرات امرأة ، تتلفّتُ هنا وهناك ، كأنّها تبحث عن ضالّة ، فظنّها غريبةً مثله ، وللغريب إلى الغريب حنينٌ ؛ فرَقَّ لحالها وسألها : ألكِ حاجةٌ أُرَجِّى لها ؟ .

فقالت : حاجتى لدى ذوى المروءة والنّخوة .

فقال : عسى أن أكون منهم ، أو أقومَ بما يقومون به .

فقالت : خذنى إلى دارك ، أجد فيها بعض الراحة ، وأطعَم ما تتفضّل به علىَّ ، فقد التهبتْ قدماى من المشى أكثر النهار ، واحترقت أحشائى جوعًا وعطشاً ، وليس لى فى هذه المدينة إلاّ قلوبُ الرُّحماء ، ونعمة الكرماء .

فعزّ عليه أن يتضاءلَ أمامَ سيِّدَةٍ ، تنشُد فيه فضلا وعونًا ؛ فقال : اتبَعِينى ، وجعل يسير بها فى شوارع المدينة ، ويَلِجُ فى نواحيها ، عسى أن تُرهق ، وتتعب فتُصرف عن متابعته ، ولكنها عكفتْ على مُتابعته ، حتى

دخل بها زقاقاً ، وطفق يسير فيه ، حتى انتهى إلى آخره ، فوجده مُقفلاً ، ووجد فى نهايته باباً كبيراً ، لبيتٍ تبدو عليه آثارُ النعمة ، فلم يَرَ مَفَرًّا من الجلوس على مصطبة أمامه ، وجلست هى على مصطبة أخرى تقابلها منتظرة أن يفتح الباب لهما .

ولما رأته ساكتاً مُطرقاً ، غير عابىء بالباب وفتْحِه ، قالت : أليس هذا البيتُ بيتَك ؟

فقال : بلى ؛ ولكن المملوك فى السوق ، ومعه المفتاح ؛ ولمّا يحضر .

فقامت إلى قفله ، وكسرته ، فانفتح الباب ، ودخلا وقد بَدَتْ على وجهه أماراتُ الاضطراب والخوف مما يرتقبه من سوء المصير ، وضمّتهما حجرةٌ فسيحة الأرجاء ، بها أرائكُ مصفوفة ، وزرابىُّ مبثوثة ، يتوسطها مائدة ، جمعت من صنوف الطعام والحلوى ما تشتهيه الأنفس ، فجلست أمامها ، ودعته إلى الجلوس ، ولكن اضطرابَه ، جعله يُقدِّم رجلا ويُؤخِّرُ أخرى .

وأخيراً استسلم للقضاء وجلس ، وكانت تأكلُ كأنها فى بيتها ، وجعل هو يتجرّعُ اللقمة فى إثْر اللقمة ، كأنه يتناول دواء مُرًّا بقَدَر .

حضر صاحبُ الدار «بهادر» وهو من أعيان المدينة وكبرائها . فرآهما على هذه الحال . فأشار إلى الأمجد ألاّ يتكلم ، وأن يحضر إليه على غير علم منها ، فهمّ وذهب إليه ، وقصَّ عليه ما كان منها ومنه . حتى وجدها على هذه الحالة ، فقال له :

سأعمل على تحقيق مروءتك ورجولتك ، وبِرِّك بالغرباء كرجل ذى

شَمَم وكرم ، وذلك بأن تجلس معها ، وتأ كلَ مطمئنًا ، وسأدخل عليكما في زِيّ مملوك ، فإذا رأيتَنى زجَرْتَنى ، وأنَّبْتَنى على تأخيرى ، وأوعَدتنى إن عُدتُ إلى مثل هذا فسألقى شرًّا وبيلا ؛ فقال : سمعاً وطاعة .

ولما رأته يزجر المملوكَ ويؤنّبُه قامت هى إليه ، وأمسكت العصا ، وأوسعتْه ضرباً مُبرِّحًا مُوجعاً ، والمملوكُ يصرخ ويستغيث ، والأمجد يحول بينها وبين فَعلتها ، ذاكراً لها أنه لم يُعوّده هذا الضربَ الأليم ، ولكنها لم تهدأ ثورتها ، ولمحتْ سيفاً مُعلَّقاً فى الحجرة ، فأخذتْه ، وأقدمتْ على المملوك تبغِى ضربَ عُنقه ، فمنعها الأمجد قائلا : إنّ هذا الْجُرمَ لايستحقُّ قتلا ، وسنَجترحُ به خطيئةً فى الدين ، جزاؤنا عليها جهنّمُ خالدين فيها .

ولما وجدها مُصِرَّةً على قتله ، قال لها : ما دمتِ مصرّةً على قتله فأنا أولى به منك ، وأخذ منها السيفَ ، ورفعه وضرب به عنقها ضربةً أطاحتْ برأسها ، وخلَص منها ، ونجا ذلك الرجل الكريم .

فقال صاحب البيت : حسناً فعلتَ ، فإنها امرأةٌ مَجُوسيَّةٌ ، أرادت أن تتخلصَ منى ، لتأخذَكَ إلى رجالها فيذبحوك قرباناً لما يعبدون من النار ؛ وهذه علامة دينها ، لمحتُها فى ذراعها ، وكانت نقشاً من الوشم يختصُّ به طائفة المجوس .

ثم قال : وإنك غريب لا تعرف المدينة ولا مسالكها كما أعرف ، فانتظرنى هنا حتى أذهب بجثّتها وألقيها فى البحر ، وبذلك نَدْرأ عن

أنفسنا تبعةَ قَتْلها ، وإن لم أَحضُر إليك عقب شروق الشمس فاعلم أن العسس أمسكونى بها ، وقتلنى الوالى فيها ، ولك بعد هذا البيتُ وما فيه من مال ورياش .

لفَّها « بهادر » فى عباءة، وحملها على ظهره ، وذهب إلى البحر ، وشاء القَدَر أن يلتقى العسس به ، فوجدوه يحمل جثّة قتيل ، فساقوه إلى الوالى الذى حكم بإعدامه ، على أن ينفذ ظهر الغد، وأن ينبثّ المنادون فى المدينة يدعون الناس إلى مشاهدة إعدام بهادر .

ولما كان الأمجد فى متوع النهار ، ولم يحضر إليه صاحب الدار ، خرج ليطمئن عليه ، فسمع المنادى يدعو الناس إلى الساحة أمام قصر الوالى ، لمشاهدة مقتل الشيخ بهادر .

أسرع الأمجد إلى الساحة ، فوجدها حافلة بالناس ، والشيخ بهادر أمام السيّاف ينتظر تنفيذ الحكم عليه ؛ فتقدّم إلى رئيس العسكر ، وقال : لا تقتلوه ظلماً ، فأنا الذى قتلتُ المرأةَ بيدى ، فأخذه إلى الوالى وهناك قصّ عليه قصته ، فوجد فى قوله صدقاً ، وبياناً حسناً ، وحُجّةً بالغة ؛ تنمُّ عن ذكاء وفطنة ، وعلم وخبرة ؛ كما وجد فى عمله هذا مروءةً ووفاء ، ونبلا وإخاء ، فعفا عنهما ، واستبقى الأمجد عنده ، وجعله من وزرائه .

قبض الأمجد على زمام وزارته ، فصرّفه على خير وجه ، وبعث المنادين والباحثين فى المدينة ، ليأتوه بالأسعد أينما يكن ، فكان انبثاثُهم فى المدينة على غير جدْوى ، وكيف يصل البحثُ إلى تلك القاعة ، التى هى فى زاوية

من زوايا المدينة ؟ فأمرهم أن يستمروا فى بحثهم دائبين ، وأصرّ على أن يقوم هو نفسه ، بالسعى ليلا ونهاراً وراء أخيه ، حتى يلقاه ، أو يعرف نهايته .

وقرب عيد المجوس، فأعدَّ بهرام المجوسىُّ صندوقاً خشبياً ، وأقفله على الأسعد ، ونقله مع أمتعته ليلا ، إلى المركب الذى أُعِدَّ له ولأصحابه ، ليحملهم إلى جبل النار ، حيث يذبحون الأسعد قُرباناً ، ويقضون أيام العيد هناك

وكان الوزير الأمجد يطوف بالمدينة وحواليها ، فرأى مركباً على أهْبة الإقلاع والسفر ، فذهب ومن حوله رجالُه وعساكره ، وفتَّشهُ فلم يجد أخاه ، ثم عاد إلى منزله ؛ ولكن بهرامَ المجوسىَّ أسرع بالمركب ، وغادر المدينة إلى جبل النار قبل أن يفتضحَ أمْرُه ، وشاء القدرُ أن يغبَرَّ الجوُّ ، وتثور عواصفُه ، ويشتدَّ ظلامُه ، وأن يغضبَ البحرُ ، فتهبَّ أعاصيرُه ، وتتلاطمَ أمواجُه ، وأن يضلَّ بهم المركَبُ ، فيُشرفَ بهم على مدينة الملكة مرجانة ، ويُضطروا إلى أن يرسوا عليها ، حتى تسكنَ ثورةُ الطبيعة ، ثم يستأنفوا السفر إلى جبل النار الذى يقصدون .

وكان بهرامُ قد أخرج الأسعد من الصندوق ، وألبسه ثياب المماليك ، حتى إذا ما سألته الملكة عن مقصده . أجابها أنه يتَّجر فى المماليك ، وقد باع مَنْ جلبهم ، ولم يبق معه إلا هذا المملوك .

ورأت الملكة المركبَ راسياً. فذهبت فى حاشية من رجالها وجنودها إليه ، وسألتْ بهرامَ عن عمله ، فأجابها بما كان قد أعَدَّه ، فالتفتتْ إلى

الأسعد ، فوجَدَتْ أن مخايلَ النعمة ، ومظاهرَ العزة ، ومجالى العلم والمعرفة لا تزال تبرُق فى عينيه ، وتنطقُ بها أساريرُ وجهه ، مُتسَرِّبةً من ثنايا البؤس والضَّنْك والتعذيب التى أصابته ، فقالت له :

أتعرف القراءة والكتابة ؟

فأجاب : نعم

وكانت تحمل فى يدها مصحفاً فناولته إيَّاه ، وقالت : افتح هذا المصحف ، واقرأ ، ففتحه وقرأ .

« والصابرين فى البأساء ، والضَّراء ، وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون »

فقالت : أقفله وافتحه ثانية ثم اقرأ ، فقرأ :

« ألَم نشرحْ لك صدرَك ، ووضعنا عنك وزْرَك ، الذى أنقضَ ظهرك ورفعنا لك ذكرك ؟ فإن مع العُسْرِ يُسْرًا ، إن معَ العسر يسرا »

فأمرته أن يفتح للمرة الثالثة ويقرأ ، فقرأ :

« ثم نُنَجِّى الذين اتَّقَوْا ، وَنَذَرُ الظالمين فيها جِثِيًّا »

فعقدتْ عزمَها على شرائه ، وقالت لبهرام : بِعْنى هذا المملوكَ ، فاعتذر ، وقال :

لا أستطيعُ ذلك ، لأنه لأمير من الأمراء ، وقد وعَدْتُه به ، وقبضتُ ثمَنه ، فأمرتْ رجالَها أن يحملوه إلى قصرها ، وأمرت بهرام أن يُقْلِعَ

الليلة بمركبه ، وإلا حطَّمته وأغرقته ، ومن معه ، فأذْعَن لأمرها ، وهو فى غيظ عظيم .

ورجعت الملكةُ إلى قصرها ، فأنزلت الأسعد منزلا مباركا ، وأطعمته ، وكشفت ما به من ضُر ؛ وكان القمر قد كسا الوجودَ بنوره ، وهدأتْ الطبيعةُ ، فرغب أن يذهب إلى بُستان الملكة الذى يحيط بقصرها ، ينْشَقُ نسيم الحرية ، ويناجى فيه القمر ، ذاكراً أخاه ، ضارعاً إلى الله أن يلقاه .

جلس بجوار فسقية تحت ضوء القمر ، شاخصاً إليه بصره ، غارقاً فى تفكيره ، حتى غلبه النوم ، فأسلم نفسه إليه .

أما بهرامُ المجوسىُّ فقد أمر رجاله أن يرتحلوا من فورهم راجعين إلى ديارهم ، خوفاً من الملكة وشرها ، فقالوا : حتى نأتىَ بالماء الذى نحتاج إليه وخرجوا بقِرَبهم إلى المدينة يبحثون عن ماء ، فدخلوا بستان الملكة خِفْيَة ، فألفَوْا الأسعد نائماً بجوار السَّقيفة ، فملئوا قِرَبَهم ، وحملوه إلى مركبهم ، وأقلعوا به إلى وِجْهَتهم ، فى سرور عظيم بالعثور عليه ورده إليهم .

وتفقّدت الملكة الأسعد فلم تجدْه ، فطلبت المركبَ فوجدته قد أقلع ، فأمرتْ فى الحال أن يلحقَ به ثُلّةٌ من الجنود البحارة ، يأتونها به إن كان فيه .

وما هى إلا ساعةٌ ، حتى بان للجنود مركبُ بهرام ، فظن أنهم أقبلوا

مسرعين من أجل الأسعد ، وخَشِيَ الضر بسببه ، فأمر رجاله أن يُلقوه في البحر ، لينجو من بلواه .

وأحاط الجنودُ بمركب بهرام وفتشوه ، فلم يجدوا للأسعد أثراً ، فخلّوا سبيله ورجعوا ، أما الأسعد فإنه جعل يطفو ويغطس سابحاً نحو البر حتى أنجاه الله ، فخرج ومشى حتى دخل مقبرة ، فوجد فيها قبراً جديداً مفتوحاً ، فكَمَنَ فيه إلى أن يأتي الصباح .

وكان المركب قد رسا على ذلك البر ، وخرج إليه بهرام ، ليقضي بعض شئونه ، وبينما هو يجتاز المقبرة ، عثر بهذا القبر الحديث ، فنظر فيه فوجد الأسعد راقدًا ، فجذبه إليه ، وساقه إلى مركبه ، ورجع به إلى داره فرحاً مسروراً ، مُرْجِئاً الذهاب به إلى جبل النار إلى العام المقبل ، خشيةَ أن يُعْثَر عليه وهو في حَوْزَته .

وهناك أودعه حجرةً تحت الأرض ، وأمر ابنته بستان أن تكتم أمره ، وتتولى تعذيبه ، وما رأته بستان حتى أحستْ من نفسها حُبًّا له ، وعطفاً عليه ، وكانت مُنكرةً فِعالَ أبيها ، ناقمةً منه ومن قومه عبادةَ النار التي يُورون . وكانت في قلقٍ نفسيٍّ من دينهم ، ولكنها لم تُبْدِه لهم . وفي جلسة وادعة سألت بستانُ الأسعدَ عن دينه ، فقال :

إنّا نُؤمن بالله الذي خلق السموات والأرض ، وجعل الظُّلمات والنور ، وخلق الظلَّ والحَرُور ، ونؤمن برسوله الأُمّيّ العربي ، الذي جاءنا بكتاب من عند الله ، فيه آيات بيِّنات ، وهُدًى للعالمين ؛ وجعل يتلو عليها ما تيسَّر

من آياته ، حتى شَرَح الله صدرها للإسلام ، وآمَنَتْ بالله ورسوله ، وأحاطَتْه برعايتها وإكرامها ، على غير علمٍ من أبيها الذى كلما سألها عنه أجابته أنه فى العذاب المهين ، وكان الأسعد بعد إسلامها ، واطمئنانه إليها قد قصَّ عليها قصته .

وفى فجر يوم سمعت بستان المنادىَ ينادى ويقول : إن مَنْ كان عنده شابٌ يُسمَّى الأسعد ، فليحضرْه إلى الوزيرِ الأمْجد ، ومَن أخفاه ووجده عنده ، حَلَّ عليه غضبُه ، وكان من الهالكين .

فذهبتْ إلى الأسعد وأخبرته ، واتفقا على أن يَفِرَّا سرًّا إلى الوزير ، لينجوَا من هذه الدار النَّجِسة ، الظَّالِمِ أهلُها .

وفى رَأْدِ الضُّحى كانا بين يدى الوزير ، وأخبراه بكل ما فعلا ، ففرح بلقاء أخيه ، وأمر بإحضار بهرام المجوسىّ ، ولما مَثَلَ بين يديه . أصدر الحكمَ بإعدامه ، جزاء ما قدمت يداه ، فقال بهرام : وإن آمنت بالله ورسوله .

فقال الأمجد : إن الإسلام يَجُبُّ ما قبلَه .

فقال بهرام : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأُشهدُكم أنى سأقيم مسجداً بجوار دارى يُذكرُ فيه اسمُ الله ، ويُسبَّح له فيه بالغُدُوِّ والآصال ، وأرجو أن تُزَوِّجَ ابنتى بستان من الأسعد ، حتى تَطْهُرَ ذريتى . ويكتبنا اللهُ وإياكم فى الصادقين . وأقيمت الأفراح ، وتمَّ الزواج ، ورُفع بيتُ الله ، وعاش الجميع فى عِزَّةِ الإسلام آمنين هانئين .

وبينما الملكُ ووزيرُه الأمجدُ وأخوه الأسعدُ جُلوسٌ صباحَ يوم ، إذ جاءهم نذيرٌ من رجال الملك . وقال : لقد غشيَتْنا يا مولانا غاشيةٌ ، من جيوشٍ مُغيرة ، قادمةٍ إلى المدينة ، كأنها جرادٌ مُنتشر .

فقال الأمجد : مُرْنى يامولاى أن أخرجَ إلى قائدها ، وأطّلعَ على مَقصدِه وأعالجَ الأمرَ على ما تقتضيه المصلحة .

فقال : حسناً أردت ، ونرجو لك سداداً ورشداً .

وهنالك أوْصَلَتْه طليعةُ الجيش إلى القائد . وكانت الملكةَ مرجانة ؛ فقالتْ للأمجد : مالنا فى امتلاك مُدُنٍ حاجة ، ولا فى إزعاج آمنٍ مَأرب ، ولم تَحْفِزْنا قوة السلطان وغرورُه ، إلى البطشِ بالشعوبِ الوديعة المُسالِمة، وإنما نحن نُفَتّش عن فتى يسمى الأسعد ، نجّيْتُه من بهرام المجوسىِّ ثم سرقه منى ، ولن يسكت عنى الغضبُ حتى أجدَه ، أو أقْتُلَ به بهرامَ وذُرّيتَه .

فقال مبتسما : إنى أنا أخوه الأمجد ، وهو عندى ، وقصَّ عليها نبأه بعد أن سرقه بهرام ، وسأحضره إليك الآن فى صحبةِ ملك المدينة .

وجاء الملكُ وفى حاشيتهِ الأسعد ، فشكر للملكة نبيل عطفِها ، وأدَّى ما ينبغى لمثلِها من الإكرام فى مثل هذا الموقفِ العظيم .

وبينما كان الأسعد يحكى ما جرى ، إذا بغَبَرَة يسدّ الأفق ظلامُها ، وما زالت تدنو ، حتى انجلَت عن جيش ضرب خيامَه على مقربة من المدينة ، ثم أرسل قائدُه إلى ملكِها رسولاً يبلغه .

لقد جئتُ فى طلب ابنتى (بدور) فإن وجدناها ، أو وجدنا نبأً يقيناً

عنها ، وإلّا فلا تظنوا أنكم ما نعتّشكمُ حصُونُكم وكثرتُكم منا ، إن كان لكم يدٌ فى إخفائها .

فلما بلّغ الملك ذلك على ملأٍ من الجالسين ، قال الأمجد : إنها أمى وقال الأسعد ، وهذا الملكُ جدُّنا ، فلو أمرتَ أن نذهب جميعنا مع رسوله فنلقاه ونحيِّيه . ثم ندعوه إلى دار ضيافتك . كان ذلك أليَقَ بنا وأكرم . وجاء الملكُ المُغير إلى القصر صديقاً حميا ، وعرف من الأمجد وأخيه ، ما كان من أبيهما لهما . وما أصابهما ، حتى جمعتهم الأيامُ . فبات جميعهم تَفْتَرُّ ثغورُهم سروراً وبهجة . وتلْهَجُ ألسنتُهم حمداً لله وشكراً .

ولما انكشف وجهُ النهار . أنبأتْ طلائعُ الجيشين المعسْكرَيْن أن جيشاً آخر سائرٌ إلى المدينة من الناحية الأخرى ، فقال الملوكُ : خذوا منه حِذْرَكُمْ ثم ارتقبوا ، فعسى أن يكونَ قد خرج لمثل ما خرجنا له .

ولقد صدق تقديرُهم فلم يكن هذا الجيشُ إلا لقمر الزمان ، جاء به باحثاً عن ابنيْه الأمجد والأسعد .

ولعلك فى عَجَب من قمر الزمان ، فكيف يَنْشُدُ ابنيه فى الأحياء ، وقد قتلهما سيّافُه ، وأتاه بثيابهما ودمهما ؟! .

لقد أيْقنَ قمرُ الزمان أنه حَكَم بقتلهما ظالماً ، فظن أنْ قد نظر الله إليهما بعدْله ورحمته ، فقيَّض لهما مَنْ نجاهما ، وقد أخذ هذا الظنُّ يَقوى ويخرج من وَهْنِ الزَّعْم، إلى قوة الحقيقة ، وزاده قوة أن أحضر بنت مملوكه السيَّاف وسالها :

ماذا قال والدك عند وفاته ؟

فقالت : رحم الله والدى ، لقد كان يُرَدِّدُ هذا القول عقب صلاته وعند القيام من النوم ، وعند الذهاب إليه .

« اللهمَّ كما أطلقتُ من القتلِ الآثم بريئين ، فاحفظ أولادى من ظلم عبادك ، يا أرحم الراحمين » وهو الذى كان يردده وهو مُقبلٌ على آخرته .

وعسى أن تكون قد أعذرت قمر الزمان ، إذ عبّأ الجيوش وجعل يبحث عن ولديه ، وكأنهما لم يَجْرِ عليهما حكمهُ بالإعدام .

ذهبَ الأمجد والأسعد فقابلا والدهما ، فكانا بردًا وسلامًا عليه وإن تضاءل أمام القدر العادل ، فاستغفر ربه ، وخرّ راكعًا وأناب .

وكان شهرمان لا يزال قلبه هائمًا خلف ابنه قمر الزمان ، وزاده وضوحًا فى نفسه ، أن أخبارَ وجوده لا تَنْفَكُّ آتيةً إليه تَتْرَى ، ولما علم أنه قصد مدينة « بهروز » خَفَّ مسرعًا إليها ، وهناك نظمت الملوك ، والأمجد والأسعد ، وبهرام وبنته ، ليلة ساهرة ، تفيض بِشْرًا ، وتشعُّ هناءة وأنسًا ، وتزوج الأمجد من الملكة مرجانة ، وسافر جميعهم إلى قصر الملك قمر الزمان ، فعاد إلى الوالدتين قلباهما ، وتولى الأمجد المُلكَ بدلا من مرجانة زوجه ، والأسعد بدلا من قمر الزمان والده . وعاش الجميع يتقلبون فى النَّعْماء ما امتدَّت حياتُهم ، وكان الله على كلِّ شيء مُقْتدرا .

رقم الإيداع	١٩٩١ / ٣٤٤٤	
الترقيم الدولى	977 – 02 – 3236 – X	ISBN

١ / ٩٠ / ١٧٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

ألف ليلة وليلة

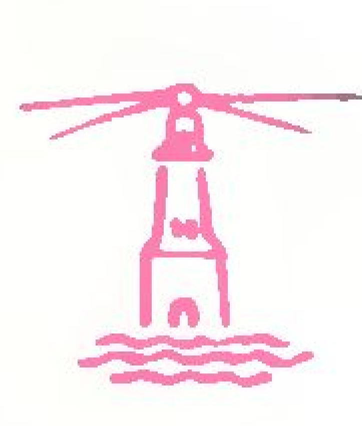
هذه طبعة جديدة من هذه المجموعة التى تنتمى إلى التراث الشعبى.. والتى نالت إهتمامًا عالميًا فى الشرق والغرب.. وترجمت إلى كل لغات العالم..

وتمتاز هذه الطبعة بحسن الصياغة التى تناسب عقول الشباب والناشئة.. وتخلو من الشوائب التى توجد فى طبعات كثيرة..

إنها واحدة من عيون التراث الذى تحرص دار المعارف على تقديمه إلى القارئ العزيز..

صدر منها:

١ - شهر زاد ودنيا زاد
٢ - السندباد البحرى
٣ - قمر الزمان
٤ - الصياد والعفريت
٥ - معروف الإسكافى
٦ - الأحدب والخياط
٧ - عبدالله البرى وعبدالله البحرى
٨ - أبو الحسن وجاريته تودد
٩ - الحصان المسحور
١٠ - على بن بكار وشمس النهار
١١ - على الزئبق ودليلة المحتالة
١٢ - علاء الدين والمصباح العجيب
١٣ - على بابا



دار المعارف